محاضرات في البيان

اعداد

أ.د. فريد محمد النكلاوى

أستاذ البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلق الله ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا .

وبعد :

فهذه محاضرات في مسائل علم البيان ، قمت - مستعيناً بالله عز وجل - باعدادها مراعياً فيها تبسيط القواعد ، والإكثار من الشواهد ، مع تجنب التوسع في عرض الخلافات حول بعض القضايا التي ربما يؤدي الإطناب في ذكرها إلى تشتت ذهن الطلاب ، وبخاصة في هذه المرحلة .

وقد أفدت في اعداد تلك المحاضرات مما توفر لدى من مصادر ومراجع وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها واعتذر عما وقع من سهو أو زلل .

" ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين " ، وما توفيقي إلا بالله هو حسبي ونعم الوكيل .

المؤلف

أ.د. فريد محمد بدوى النكلاوى

أستاذ البلاغة والنقد

علم البيان

كان العلماء قديماً يطلقون كلمة بيان على علوم البلاغة بصفة عامة وكان هذا يشمل أيضاً المعانى والبديع ، كما أطلقوا كلمة بديع ومعانى – على مجموع العلوم الثلاثة للبلاغة ، ولم يتحدد المعنى الاصطلاحى الخاص لكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث إلا عند السكاكى عندما قسم البلاغة إلى علومها الثلاثة المعانى والبيان والبديع وأدرج تحت كل علم من هذه العلوم الأبواب التى تخصه .

وكلمة بيان فى معناها اللغوى لا تخرج عن معنى الإيضاح وإظهار المقصود من الكلام بعبارات بليغة ، وقد جاء هذا المعنى فى القرآن ، قال تعالى : ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ [1] ويقول الجاحظ : البيان اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته [2] – ويذكر ابن رشيق أنّ البيان هو الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة ، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتى التعقيد فى الكلام الذى يدل ولا يستحق اسم البيان [3] وظل هذا المعنى العام إلى أن أصبح مصطلحاً لأحد علوم البلاغة الثلاثة ، ووضعوا له تعريفه الاصطلاحى .

وظيفة علم البيان :

يبحث علم البيان عن طريقة دلالة اللفظ المفرد أو المركب على المعنى الذى يريده المتكلم ، وعن جهة الربط بين المعنى الوضعى للفظ والمعنى الذى استعمل فيه اللفظ وهو ما عرف بالمجاز والكناية .

---

(١) سورة الرحمن ٣ ، ٤ .

(٢) البيان والتبين ٧٦/١ .

(٣) الأعمده ١٦٩/١ .

والمعروف أن العرب لم يقفوا فى تعبيرهم عن مقاصدهم عند مجرد دلالة اللفظ الوضعية لأن ذلك يضيق عليهم مجال التعبير ولا يكفى فى توضيح ما يدور فى نفوسهم من مشاعر بل عمدوا إلى توسيع دائرة التعبير فاستخدموا التشبيه والاستعارة والكناية والتعريض لتوضيح ما دق وخفى من المعانى ، واستخدموا فى التصوير الذى يقدمونه صوراً متعددة للتعبير عن المعنى الواحد الذى يمكن الأديب من اختيار ما يراه ملائماً لما فى نفسه من طرق التعبير لينقل المعنى إلى السامع على شكل مناسب ، ومن ثم نراهم قد عبروا عن المعنى الواحد بطرق مختلفة بعضها واضح والبعض الآخر أكثر وضوحاً ، وبعضها يؤدى المعنى مجرداً عن المبالغة وبعضها يكسب المعنى قوة ويزيده بياناً .

وقد أدى هذا التوسع فى طرق التعبير إلى تلوين الكلام باللون الذى يلائم حال كل مخاطب مع تقريب المعانى بالصور المشابهة لها ، أو الاستدلال على المعانى باللوازم البينة ليكون للكلام قوة التأثير والإقناع ، فإذا أريد التعبير عن كرم محمد مثلاً فبالإمكان استخدام شتى صور البيان فى هذا فنقول : محمد كالبحر فى العطاء أو نقول : رأيت بحراً يوزع عطاياه ، أو تقول : كم لمحمد عندنا من أيادٍ ، أو نقول الكرم بين بردى محمد ، أو يصير الجود حيث يسير، إلخ فقد عبرنا عن إثبات الكرم لمحمد باستخدامنا ما أتاحه لنا علم البيان من صور وطرق متعددة من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية ، ولا شك أن هذه الصور تختلف فى دلالتها على المعنى .

تعريف علم البيان :

هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه، والمراد بالعلم هنا : إما القوانين التى وضعها البلغاء لإيراد المعنى الواحد بطرق

مختلفة كقوانين المجاز والكناية ، أو يراد بالعلم :

الموهبة أو الملكة التى تتكون عند الشخص من خلال دراسته لهذه القوانين وتطبيق ذلك على نصوص الأدب من شعر وغيره .

والمراد بالمعنى الواحد : المعنى المعبر عنه بكلام تام مطابق لمقتضى حال المخاطب ، فلا يعد من علم البيان تأدية المعنى المفرد بألفاظ مترادفة كالأسد والليث والسبع والغضنفر ، لأن ذلك من خواص علم اللغة .

كما أنه لو أورد معان متعددة بطرق بعضها أوضح دلالة على معناه من البعض الآخر على معناه لم يكن ذلك من علم البيان فى شئ .

والمراد باختلاف الطرق فى الوضوح : هو اختلاف تلك الطرق فى التعبير عن المعنى الواحد فى مراتب الوضوح بحيث يكون بعضها واضحاً وبعضها أكثر وضوحاً ، وليس المراد أن يكون بعضها واضحاً وبعضها خفياً ، لأن الخفاء الذى يؤدى إلى عدم فهم المعنى مرفوض ومعيب عند علماء البلاغة (١) .

– ومنشأ التفاوت فى الوضوح يرجع إلى :

أ– قرب المعنى المجازى من المعنى الحقيقى وبعده عنه .

ب– درجة وضوح القرينة الدالة على المعنى المراد ، فإن كانت مما يدركه السامع بسهولة كان التعبير فى غاية الوضوح ، وإن كانت لا تدرك إلا بعد طول الفكر كانت من الدلالة الدقيقة الخفية بالنسبة للأولى .

وأما الدلالة المذكورة فى التعريف فإن للبلاغيين فيها جولات حول تحديد مفهومها ، والذى يهمنا من هذا المعترك هو بيان أنواعها والمستخدم منها (٢) .

١– الدلالة المطابقية : وهى دلالة اللفظ على تمام ما وضع له كدلالة لفظ

---

(١) المطول ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) يمكن مراجعة المطول للاستزادة ٣٠١ .

البيت على مجموع الجدار والسقف ، وهذا النوع لا يدخل فى اعتبار البلاغيين.

٢- الدلالة التضمنية : وهى دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع دخوله فيه ، بمعنى أنه إذا نطق باللفظ فهم منه معناه الكامل أولاً واستتبع ذلك أن يفهم جزء معناه كدلالة البيت على معنى الجدار أو السقف .

٣- الدلالة الالتزامية : وهى دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه الوضعى لازم له ذهناً سواء كان هذا العالم ، لما ثبت فى حكم العقل من التلازم بين تغير العالم وحدوثه ، أو كان التلازم مبنياً على عرف مشهور ، كدلالة الأسد على الشجاعة ، فإن الذهن يدرك التلازم بين الأسد والشجاعة عرفاً ، ويعتمد البلاغيون على دلالتى التضمن والالتزام فى علم البيان ، لأن العقل كثيراً ما يدرك للمعنى الواحد لوازم متعددة يتأتى أن يعبر بها عنه وإن اختلفت هذه اللوازم فى درجة الوضوح للدلالة عليه .

- ويبحث علم البيان فى التشبيه والمجاز بنوعيه (المرسل والاستعارة) والكناية .

الارتباط بين علم البيان وعلم المعاني :

على الأديب عند استخدامه لطرق التعبير المختلفة التى أتاحها له علم البيان أن يراعى الدقة فى اختيار تلك الصور للتعبير عن غرضه بحيث يكون للأسلوب الذى اختاره مزيد اختصاص بالغرض المتحدث عنه ليكون أكثر ملاءمة لمقام الكلام بحيث يتحقق لكلامه صفة الوضوح فى الدلالة التى هى وظيفة علم البيان وصفة المطابقة التى هى وظيفة علم - المعانى ، فإذا خاطب العامة بالاستعارات الدقيقة أو بالكنايات - ذات اللوازم البعيدة فقد أخطأ فى

التعبير، وكذلك إذا خاطب العالم بأسرار اللغة وخصائص الأساليب بالتشبيهات القريبة المبتذلة فقد أخطأ فى التعبير ، لأنه فى الحالتين قد تجاوز حدود البلاغة لعدم مراعاته لمقتضى الحال ، كما ينبغى مراعاة شروط الفصاحة وصحة التراكيب حتى لا يكون الكلام معيباً .

قيمة التشبيه وفائدته

التشبيه وسيلة من وسائل التعبير التى تستمد قوتها من الخيال ، وهو من فنون التعبير الشعرى ، أولع به شعراء العرب منذ الجاهلية حتى العصور المتأخرة .

والأصل فى فن التشبيه أنه تعبير فنى وأنه ضرب من المحاكاة فى صور الشاعر للطبيعة عن طريق البحث لما يريد التعبير عنه من المعانى عن معادل أو موازن حسى من الطبيعة أو البيئة المدركة بالحس .

والبليغ يؤثر أسلوب التشبيه لما يحتويه من فوائد تعود على الأسلوب من وضوح الفكرة والمبالغة فيها والإيجاز للوصول إلى الغرض (١) .

وقد اهتم العلماء والأدباء قديماً وحديثاً بالتشبيه والكلام عنه وإبراز قيمته وفائدته فى توضيح المعانى ، وإذا أردنا حصر ما قالوه فى هذا المقام لوجدناه كثيراً ولكننا سنكتفى هنا بذكر نماذج مما قالوه فى فائدة التشبيه تبين لنا قيمته.

يقول الزمخشرى : " ولضرب الأمثال واستحضار المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيئات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق حتى يريك المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد (٢) " .

أما الإمام عبد القاهر فقد اعتنى ببيان فائدة التمثيل عناية فائقة وفصل ذلك

---

(١) البيان فى ضوء أساليب القرآن ص١١٤ .
(٢) الكشاف ١/٢٠٠ .

مع ذكر الأمثلة وشرحها شرحاً أدبياً رائعاً ، ومن ذلك قوله [1] :

فالتمثيل يكسو المعانى أبهة ويكسبها منقبة ، ويرفع من اقدارها ويشب من نارها ، ويستثير لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا وحمية وشغفا .

فإن كان المعنى مدحاً كان أبهى وأفخم وأنبل فى النفوس وأعظم وأجلب للفرح وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذماً كان مسه أوجع ، ووقعه أشد ، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأوعى إلى الفكر وأبلغ فى االتنبيه والزجر " .

ويقول أبو هلال العسكرى : " التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً [2] ، ويرجع ابن سنان حسن التشبيه إلى إيضاح المعنى وبيان المراد والغلو والمبالغة [3] .

وقال ابن رشيق : " التشبيه يخرج الأغمض إلى الأوضح ويقرب البعيد[4] ".

وقال ابن الأثير : إنك إذا مثلت الشئ ، فإنما تقصد به إثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد فى طرفى الترغيب فيه أو التنفير منه ، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هى أحسن منها كان ذلك مثبتاً فى النفس خيالاً حسنا ، وكذلك إذا شبّهتها بصورة شئ أقبح منها كان ذلك مثبتاً فى النفس خيالاً قبيحاً ومن ذلك قول ابن الرومى فى مدح العسل وذمه:

تقول هذا مجاج النحل تمدحه   وإن تعب قلت ذاقئ الزنابير [5]

---

(١) أسرار البلاغة ص٩٣ وما بعدها .

(٢) الصناعتين ص٢٤٩ .

(٣) سر الفصاحة ص٢٩٠ .

(٤) العمدة ٢٨٧/١ .

(٥) المثل السائر ١٢٤/٢ .

ويرجع العلوى فائدة التشبيه إلى : المبالغة والإيجاز والبيان والإيضاح [1] .

ويقول ابن القيم : " فائدة التشبيه الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسب من فضيلة الإيجاز والاختصار ، والدليل على ذلك قولنا : زيد أسد فالغرض أن نبين أن زيداً متصف بشهامة النفس والشجاعة إلا أنا لم نجد شيئاً يدل عليه سوى جعلنا إياه شبيهاً بالأسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به مقصورة عليه فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا زيد شهم شجاع قوى البطش جرئ الجنان ... الخ لما قد عرف من اجتماع هذه الصفات فى المشبه به فإنه معروف بها مشهور بكونها فيه [2] " .

وقال عبد الرحمن حنبكه : " والأمثال القرآنية تكشف لنا الأغراض الآتية :

تقريب صورة المثل إلى الذهن ، والإقناع بالفكرة ، والترغيب بالتزيين أو التنفير بكشف جوانب القبح ، وإثارة محور الطمع أو محور الخوف لدى المخاطب وتحريك طاقاته الفكرية [3] .

وهكذا نجد أن للتشبيه فوائد لها قيمتها في مجال التعبير .

وقد فصل الخطيب القزوينى تلك الفوائد فى "الإيضاح" وضرب لذلك أمثلة فقال : "وأنقد عرفت معنى التشبيه فى الاصطلاح فاعلم أنه مما أتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره فى فن البلاغة ، وأن تعقيب المعانى به – لا سيمّا قسم التمثيل منه – يضاعف قواها فى تحريك النفوس إلى المقصود بها،

(١) الطراز ٢٧٣/١ .

(٢) الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن /٥٤ .

(٣) الأمثال القرآنية ص٣٩ .

مدحاً كانت أو ذماً أو افتخار أو غير ذلك ، وإن أردت تحقيق هذا فانظر إلى قول البحترى :

دان على أيدى العفاة وشاسع   عن كل ند فى النّدَى وضَرِيبُ
كالبدر أفرط فى العلوّ وضوْؤه   للعُصْبَةِ السَّارين جدُّ قريبُ(١)

أو قول ابن لنكك (فى ذم من حاز الجمال وَقُبحُ فعله) :

إذا أخو الحُسْنِ أضْحَى فعلُه سَمِجاً   رأيت صورته من أقبح الصُّوَرِ
وَهَبْهُ كالشَّمْسِ فى حُسْنٍ ألَمْ ترنا   نَفِرُّ منها إذَا مالتْ إلى الضَّرَرِ(٢)

---

(١) دان : قريب ، والعُفَاةُ : طالبوا الفضل ، والشاسع : الذى بلغ الغاية فى البعد .
والنِّدُّ : النظير والشبيه ، وكذلك الضريب ، والعصبة الجماعة ، والسارين : السائرين ليلاً ، هنا ويرجع سبب الحسن هنا : أن التشبيه قد وضح المعنى عن طريق قياس حال الممدوح بحال البدر وازال عنه الغرابة وجعله مقبولا ، لأن الشاعر لما جعل الممدوح قريباً بعيداً فى آنٍ واحد ، كان ذلك محل استغراب من المخاطب فالتمس لذلك شبها من البدر ، فمع أنه بعيد عنا لا يمكن أن نصل إليه فهو كذلك قريب منا غاية القرب بضوئه ، وكذلك حال الممدوح فهو وإن كان قريباً من طلاب معروفه وجوده لكنه بعيد غاية البعد فى منزلته ومكانته التى ارتقى إليها بفضائله فلا يماثله فيها أحد ولا يرقى رقيه.

(٢) أخو الحسن : صاحب الحسن والجمال ، وهو كناية ، سَمِجاً : قبيحاً غير مقبول .
ومعنى هَبْهُ : أى احْسبْهُ واعدده كالشمس فى الحسن ، وفى القاموس : هَبْنِى فَعلتُ كذا ، أى احْسُبْنِى واعدُدْنى ، وهى كلمة تقال للأمرَ ، والتشبيه فى البيتين قائم على التشبيه الضمنىّ المبنى على قياس شيئ بشئ آخر ، وصورة التشبيه هنا : أن الانسان مهما بلغ من حسن الصورة وجمال الخلقة فلا يقبل منه أن يأتى بالأفعال القبيحة التى تؤلم أو تضر بالآخرين، وكما لا يقبل من صاحب الحسن والجمال ذلك فإننا نتأذى بالشمس – وهى من أحسن الصور بهاء وحسنا – إذا اشتدت حراراتها وأصبح التعرض لضوئها سببا للأذى والضرر ومن ثم يفر الانسان منها إلى الظل .
وقد شبه الشاعر حاله مع صاحب الجمال عندما تصدر منه أفعال قبيحة فيؤدى ذلك إلى الاعراض عنه .

أو قول ابن الرومي (في تصوير من يَعِد ولا يفي بوعده) :

بَذَلَ الوعْدَ للأخِلاَّءِ سَمْحاً ... وأبَى بعد ذاكَ بذْلَ العطـاءِ

فَغَدَا كالخِلافِ بورق للعَيْـ ... ـنِ ويأبَى الإثمارَ كُلّ الإباءِ[1]

أو قول أبي تمام :

وإذا أراد الله نشـــر فضيلة ... طُـوِيَتْ أتـــاح لها لسان حَسُودِ[2]

شبه ذلك بصورة الشمس عندما يفر الناس عنها عند اشتداد حرارتها وتسببها في الحاق الضرر بالناس فلا يشفع للشمس حسنها حينئذ ، كما لا يشفع للجميل حسنه إذا كان ذا أفعال ذميمة قبيحة .

(١) الأخِلاَّءُ : جمع خليل ، وهو الصاحب والصديق ، الخلاف : نوع من الشجر يعرف بالصفصاف ، وغصونه كثيفة ذات منظر حسن لكنه لا ثمر له ، سَمْحا : أي جوادا بمعنى أنه عندما يعد يبالغ في ذلك لدرجة تجعل المخاطب على ثقه تامة بنوال معروفه لكنه سرعان ما يتبين حقيقته عندما لا يفي بما وعد فيخيب أمل طالب المعروف (لُورق) الوارقة : الشجرة الخضراء الورق الحَسَنَةُ .
وقد جاء جمال التشبيه هنا من تصوير الشاعر من أفرط في بذل الوعد وأكده لكنه ذو نفس شحيحة تأبى المكارم والوفاء بالوعد فخاب ظن الناس فيه مع وثوقهم في عطائه ، صور ذلك بصورة شجر الصفصاف فهو مورق مُعجب يُطمع من يراه من بعيد بأنه سينال شيئا من ثمره لكن يخيب ظنه عند الوصول إليه حيث لا يجد ثمرا ، فصاحب الوعدِ الذى لا يفي والصفصاف على درجة واحدة من حسن المنظر وقبح المخبر .

(٢) أتاح لها : هيّأ لها ، ، العَرْفُ : الرائحة ، والعود : نوع من الطِّيب يستخدم في البخور ، وجاءت روعة الصورة هنا من هذا التشبيه الضمني الذى صوّر صاحب الفضائل الذى تعرّض له الحسود بقصد الوشاية والحاق الضرر به ، فكان ذلك سببا في توجيه نظر الناس إليه فوقفوا على فضائله وتأملوها فعظُم في نظرهم واشتهر ، فكان تعرض الحاسد له سببا في معرفة مكارمه فجاءه النفع من حيث يتوقع الضرر ، صور الشاعر هذه الحالة بصورة عود الطيب الذى يظل محتفظا بذكاء رائحته طالما لم يتعرض للإحراق فإذا اشتعلت فيه النار ظهرت رائحته الذكية وعلقت بها نفوس الناس فاحبوها فعرفت قيمة ذلك العود مع الإحراق ولولا ذلك لظلت قيمته مجهولة للناس .

لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ما كان يُعرف طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقوله أيضاً :

وطول مُقَامِ المرء في الحيِّ مُخْلِـق لديبَـــا جَتَيْهِ فاغترب تتجدَّدِ

فإنِّي رأيتُ الشمسَ زِيدَتْ مَحبَّةً إلى الناس أن ليست عليهم بسَرْمَدِ[1]

وقِسْ حالك وأنت في البيت الأول – أي من كل مثال – ولم تنته إلى الثاني، على حالك وأنت قد انتهيت إليه ، ووقفت عليه ، تعلم بُعْدَ ما بين حالتيك في تمكن المعنى لديك[2] .

وكذا تعهّد الفرق بين أن تقول (الدنيا لا تدوم) وتسكت ، وأنت تذكر عقبه ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : "من في الدنيا ضيفٌ ، وما في يده عارية، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة"[3] .

---

(١) مُخْلِقٌ : قُبْل ، يقال : أخْلَق الثوب ، صار باليا ، والديباجة : الوجه ، وديباً جتَيْه : صفحتَيْ وجْهِه ، وإخْلاَق الوجه : مجاز عن ابتذال الناس له ، وكراهيته ، وثقل مطالعته من كثرة رؤيتهم له بصورة مستمرة ، بينما لو غاب عنهم لفترات لأحبوه ، والسرمد : الدائم والشاعر هنا يصور من استدام بقاؤه بين الناس ولم يغترب عنهم لفترة فيملّ الناس رؤيته ويكرهون النظر لوجهه فيصير وجهه كالثوب البالي الذي لا قيمة له ، يصور ذلك بحال الشمس وأنها لم تزد محبة لدى الناس إلا بظهورها فترة النهار واختفائها عنهم فترة الليل ولولا ذلك لصارت مكروهة لديهم لا يطيقون رؤيتها فيما لو كان ظهورها مستمرا على الدوام .

(٢) يقصد أنك لو قرأت الأول فقط دون الثاني لما وجدت للكلام فضلا ، ولما شعرت بجماله وروعته ، والذي جعل الكلام مقبولا كونه قد اشتمل على التمثيل الذي لم تتضح صورته إلا بعد تمام البيت الثاني في كل مثال مما سبق .

(٣) فقولك : الدنيا لاتدوم ، ليس له من التأثير في النفس من حيث إبراز المعنى وتوضيحه بصورة مقنعة كالحديث النبوي وبيت لبيد حيث اشتمل كل منهما على تشبيه وضح المراد وقاس ذلك على أمور معروفة لدى المخاطب.

أو تنشد قول لبيد :

وما المال والأهلُون إلا ودائع ... ولابدّ يوماً أن تُرَدّ الودائعُ

وبيْن أن تقول : (أرى قوماً لهم منظر وليس لهم مخبر) وتقطع الكلام ، وأن تتبعه نحو قول ابن لنكك :

في شجر السَّرْو منهم مثل ... له رُواءٌ وليس له ثَمرٌ[١]

وانظر في جميع ذلك إلى المعنى في الحالة الثانية ، كيف يتزايد شرفه عليه في الحالة الأولى؟[٢]

ولتأثير التشبيه في النفس أسباب ستعرفها فيما بعد .

ففي الحديث النبوى : مثّل صلى الله عليه وسلم حال كل موجود في الدنيا بالضيف ومثّل ما في يده من مال وغيره بالعارية (وهي ما يؤخذ من الغير بقصد الانتفاع به لفترة ثم رده إليه) والمعروف أن الضيف لا يستقر عند مضيفه الا لفترة وجيزة جدا ثم يرتحل إلى المكان الذى يستقر فيه ، وكذلك العارية مهما طال مكثها عند من استعارها فإن مصيرها لصاحبها ولا قرار لها في يد المستعير فإذا علمنا ذلك قلّ أملنا في الدنيا وانقطع تعلق النفوس بها وأدانا ذلك إلى عدم البخل بالمال وعدم الاغترار به لأنه سرعان ما يتحول من يدنا إلى غيرنا ، وكذلك قال الله سبحانه (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) الحديد ، فكل وارث يخلف من سبقه في ذلك المال ومن ثم فليس امتلاكه دائم .

وكذا : مثل لبيد حال المال والأهل في عدم البقاء والاستقرار بحال الوديعة التي تؤخذ لفترة ثم ترد لصاحبها ، والله سبحانه هو الملك والمالك لكل شئ في الدنيا ، ولولا مجئ ذلك على طريق التشبيه والتمثيل لما كان له ذلك الأثر في النفس .

(١) وكذا الحال هنا فإن للبيت المذكور مزية على قولك : أرى قوما لهم منظر وليس لهم مخبر : وجاءت تلك المزية في البيت من تمثيل هؤلاء القوم الذين يعجبك منظرهم الظاهري لكنهم خلوا من الفضائل والقيم التي تجعلهم في مصاف العظماء مع أن شكلهم يدل على غير ذلك ، مثّلهم في البيت بشجر السّرو ، وهو شجر طويل ذو أوراق لامعة ناضرة لكنه لا يثمر ، ومن ثم فشكله الظاهرى يعجب من يراه من بعيد لكن عند الانتفاع لا تحصل منه على طائل لأنه عديم الإثمار .

(٢) الايضاح ٢ /٢١٤-٢١٥ .

التشبيه

تعريفه :

هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى بأداة ظاهرة أو مقدرة ، والمراد بالأمر الأول المشبه ، وبالأمر الثانى : المشبه به ، والمراد بالمعنى : الصفة التى يلحق فيها المشبه بالمشبه به يعنى وجه الشبه ، وذكروا فى التعريف كون الأداة مذكورة أو مقدرة ليخرج من التشبيه مثل قولنا : رأيت بحرا يصلى ، فانه استعارة ، لقيت بزيد أسدا ، لأن هذا المثال وإن تضمن معنى التشبيه فانه يعرف بالتجريد ، ولا يمكن تقدير الأداة فيه ، ومثال التشبيه المذكور الأداة قول الرسول ﷺ "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" فقد شبه الحسد بالنار فى معنى مرتبط بهما (وجه الشبه) وهو إفناء ما يتصل بهما ، والأداة هنا الكاف .

ومثال ما حذفت منه الأداة قوله تعالى ﴿صم بكم عمى﴾[1] أى هم كالصم وكالبكم .. الخ .

وقد اعتبر البلاغيون التشبيه من مباحث علم البيان لأن الاستعارة تبنى عليه، وأن له من الاعتبارات واللطائف البيانية ما يجعله موضع اهتمام البليغ ، كما أن له أثراً ظاهراً فى توضيح المعانى وتبيينها وتزيينها أو تقبيحها ، كما ينتج التشبيه الكثير من الصور البديعة والخيال العجيب ، والتشبيه أقسام مختلفة ومراتب متباينة فى القوة والضعف ، كما أن منه المفرد والمركب والحسى

(١) سورة البقرة ١٨ .

والعقلى ، مما يؤدى إلى كون بعض التشبيهات لها دلالة ظاهرة وبعضها دلالته خفية تحتاج للتأمل ، وهذا الاختلاف فى وضوح الدلالة جعل معظم البلاغيين يعتبرونه من المباحث الرئيسية فى علم البيان خلافاً لبعضهم الذى اعتبره كتمهيد لباب الاستعارة[1] .

أركان التشبيه :

الطرفان : (المشبه والمشبه به) وهما أساس التشبيه ولابد من ذكرهما وقد يحذف المشبه من الكلام إذا دلت عليه قرينة كقوله تعالى ﴿صم بكم عمى﴾ فالمشبه المحذوف هنا المنافقون المذكورون فى الآيات السابقة ، وقد علم المحذوف من سياق الكلام ، أما المشبه به فلا يجوز حذفه لئلا يخل بالغرض المراد من الكلام ولم يسمع عن العرب حذفه ، وجه الشبه وهو المعنى الذى يشترك فيه الطرفان تحقيقاً أو تخييلا ، وقد يحذف وجه الشبه إذا كان واضحاً مشهوراً كقولنا : عزمه كالسيف ، لأن وجه الشبه هنا هو المضاء ، ومحمد كالأسد فالوجه هو الشجاعة وكلاهما ظاهر مشهور ، ويسمى التشبيه الذى حذف منه الوجه مجملاً ، لأنه يترك المخاطب يفكر فى هذا الوجه لإدراك الصفة التى من أجلها جاء التشبيه .

كما يسمى التشبيه الذى ذكر فيه وجه الشبه مفصلاً ، لأن ذكره قد وضع يد المخاطل على الجهة التى من أجلها جاء التشبيه وبينها له ومثاله قول الشاعر:

يا شبيه البدر حسنا وضياء ومنالا   وشبيه الغصن لينا وقواما واعتدالا

---

(١) ينظر المطول وحاشيته السيد ٣٠٩-٣١٠ .

فقد ذكر وجه الشبه فى كل من التشبيهين فشبه أولا بالبدر فى الحسن والضياء وبعد المنال ، كما شبه بالغصن فى اللين والقوام والاستواء ، والوجه هنا متعدد .

وقد يكون المذكور فى التشبيه وصف يستلزم وجه الشبه مثل : كلامه كالعسل فى الحلاوة ، فإن المذكور فى الكلام ليس وجه الشبه الحقيقى بل هو لازم الحلاوة من حيث الشعور براحة النفس واللذة .

"أداة التشبيه" وهى كل لفظ دل على المشابهة وقد تكون حرفاً كالكاف وكأن ، وتفيد كأن التشبيه إذا كان خبرها جامداً كقولنا : كأن محمدا بحر .. وإذا كان خبرها مشتقا فالأغلب أنها تفيد الظن بوقوع الخبر لا المشابهة كقولك :

كأن عليا قائم ، وقد تكون الأداة اسماً كمثل وشبه ومماثل ومشابه ومحاكى، وقد تكون فعلا مثل : شابه وحاكى ومائل ، ويشابه ويماثل محمداً بحراً، وحسبْتُ ، إذا كان التشبيه بعيدا ، وذكروا أن من أدوات التشبيه نظير وعدل، ومكافئ ، ومواز ، ومضارع ، وندّ ، وصنو ، وأفعل التفضيل ، ولعل(*) .

ذكر العلماء أن كأنّ للتشبيه إذا كان الخبر جامداً ، نحو : كأن زيدا أسد ، وتكون للشك إذا كان الخبر مشتقا نحو : كأنك قائم ، لأن الخبر فى المعنى هو المشبه ، والشّئ لا يشبه بنفسه .

وقيل : إن كان مطلقاً ، ويؤوّل المثال الأخير على أنه من حذف الموصوف أى كأنك شخص قائم .

(*) انظر عروس الأفراح ٣/٣٩٢ .

والحق : أن كأن قد تستعمل عند الظن بثبوت الخبر من غير قصد إلى التشبيه سواء كان الخبر جامداً أو مشتقاً ، نحو : كأن زيداً أخوك ، وكأنه فعل كذا ، وهذا كثير في كلام المولدين ، وذكر السبكي أن كأن في إفادتها للتشبيه لا فرق فيها بين المحققة والمشددة ، ولا فرق بين أن تتصل بما الكافة أو لا ، والأصل في الكاف ومثل وشبه ونحوها مما يدخل على المفرد أن يليه المشبه به إما لفظا نحو : زيد كالأسد ، وقوله تعالى ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً﴾[1] وإما تقديرا كقوله تعالى ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾[2] ، التقدير : أو كمثل ذوى صيب ، فحذف ذوى لدلالة قوله ﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم﴾ عليه ، لأن هذه الضمائر لابد لها من مرجع وحذف (مثل) لدلالة (كمثل الذى) عليه فالمثل المشبه به قد ولى الكاف ، لأن المقدر فى حكم الملفوظ .

– وقد يلى الكاف ونحوها غير المشبه به ، وذلك إذا كان المشبه به مركباً لم يعبر عنه بمفرد دال عليه[3] كقوله تعالى ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح﴾[4] إذ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يمكن تقديره ، بل المراد

---

(١) سورة البقرة ١٧ .

(٢) سورة البقرة ١٩ .

(٣) احرز بذلك عن المشبه به المركب المعبر عنه بمفرد يلى الكاف ، وهو المثل ، بمعنى الحال والقصة العجيبة الشأن كقوله تعالى ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ الجمعة ٥ .

(٤) سورة الكهف ٤٥ وانظر المطول ص٣٢٨-٣٣٠ .

تشبيه حالها فى نضارتها وبهجتها وما يعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات الحاصل من الماء ، يكون أخضر ناضرا شديد الخضرة ثم ييبس فتطيره الرياح كأن لم يكن .

والأصل فى كأنّ وتشابه وتماثل أن يليها المشبه كقولك : تشابه سيفه وقلمه فى إخضاع الخصوم .

هذا وقد تحذف الأداة من التشبيه فيسمى مؤكدا ، والمذكور الأداة يسمى مرسلا أى مطلقا من التأكيد ، وإذا حذف الوجه والأداة معا فان التشبيه يسمى بليغاً ، عند البعض ، ولكل ركن من أركان التشبيه مباحث تخصه وسنحاول إجمالها فيما يأتى :

أولاً : تقسيم التشبيه باعتبار الطرفين : ويدخل فى هذا التقسيم حسية الطرفين أو عقليتهما ، إفرادهما أو تركبهما ، اتصافهما بالوحدة أو التعدد .

أ – ينقسم التشبيه باعتبار حسية[1] الطرفين أو عقليتهما إلى أربعة أقسام :

١ – تشبيه محسوس بمحسوس : يدخل تحت هذا القسم كل ما يمكن إدراكه بإحدى الحواس الخمس من لون وطعم وسمع وبصر ، والأمثلة له كثيرة

(١) ذكر البلاغيون أن الحسى : هو ما كان مدركا هو أو مادته بإحدى الحواس ومن ثم كان هناك ما يعرف بالحسى الحقيقى وهو ما كان له وجود فى الواقع كضوء المصباح ، وما يعرف بالحسى الخيالى: وهو ما لا تدركه الحواس بالصورة التى اخترعها الانسان من خياله وان كانت مادته التى تركب منها تدرك بالحس كما ذكروا أن العقلى : هو ما يدرك بالعقل أو – بالوجدان ، وقد جعلوا العقلى أيضا على قسمين : العقلى الحقيقى وهو المعانى الثابتة الموجودة التى يستقل بإدراكها كالذكاء ، والعقلى التوهمى : وهو ما كان من الأمور الوهمية التى لا تدرك أجزاؤها بالحواس لعدم وجودها ولو وجدت تدرك بالحواس .

لا تحصى ، ومن ذلك فيما يدرك بالبصر : تشبيه الخدّ بالورد في الحمرة، فكل من المشبه ، والمشبه به والوجه حِسّيّ ، وقولك : فلان كالفيل ، في الضخامة ومن ذلك فيما يدرك بالسمع : صوت كالهمس ، في عدم الوضوح وصوت كالبلبل ، في الحسن .

ومن هذا القبيل في المشمومات : رائحة فلان كالمسك ، وكالعنبر .

ومن المذوقات : ريقه كالعسل ، في حلاوة الطعم .

ومن الملموسات : جلد كالحرير ، في النعومة ، وشعر كالشوك في الخشونة.

ومن التشبيهات الحسية قول الشاعر يصف رياضا مختلفة الألوان تحيط بركة ماء :

محفوفة برياض لا تزال ترى   ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

فتلك الزهور المتنوعة الألوان المتناسقة التي ظهرت في أجمل صورة على شاطئ تلك البركة ، شبّهت بريش الطواويس من حيث تنوع الألوان وتناسقها وجمالها ، وكل ذلك مما يرى بالبصر ويشاهد .

وقد كرر أداة التشبيه هنا – تحكى – مرتين ، وهذا التكرار أفاد شدة المقاومة بين كل من المشبه والمشبه به لأن قوله : تحكيه جعل الزهور مشبهه بريش الطواويس ، وقوله : ويحكيها ، جعل ريش الطواويس مُشبها بالزهور ، وكل ذلك يفيد مدى الحس والتلاؤم بين كل من المشبه والمشبه به .

ومنه قوله تعالى ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾ (١)

(١) سورة محمد ١٢ وتفسير النسفي ١٥١/٤ .

فإنهم شبهوا فى غفلتهم عن الآخرة وانهماكهم فى الملذات دون تفكير فيما ينتظرهم من العذاب فى ذلك بالبهائم التى تمرح وتمرع ولا تفكر فيما ينتظرها من ذبح بعد سمنها .

– ومنه قول الشاعر :

سارت جحافلهم فى الأرض تثقلها   كـأنها سيل فى الوديان ينهمر

فإن المشبه وهو الجحافل والمشبه به وهو السيل من الأمور المحسوسة التى تدرك بالبصر ، وقد الحق البلاغيون بالتشبيه الحسى ما يعرف بالتشبيه الخيالى : وهو ما يخترعه الأديب من الصور المتخيلة إظهارا لبراعته ، ومن ذلك قول الصنوبرى :

وكأن محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعّد   أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

لقد شبه نبات شقائق النعمان فى خضرة أغصانها واحمرار أزهارها بأعلام من الياقوت – وهو أحمر – منصوبة على رماح من زبرجد وهو أخضر ، ولاشك أن صورة المشبه به على الهيئة التى ذكرها الشاعر لا وجود لها فى الحقيقة ولكن أجزاء تلك الصورة قبل تركبها موجودة وتدرك بالحسى ، فالزبرجد وحده موجود وكذا الأعلام والياقوت ، ومنه قول الشاعر :

كلنا باسط اليد نحو نيلو فرند   كدبابيس عسجد قطبها من زبرجد

النيلوفر نبات مائى ساقه أخضر وزهره مشوب بصفرة ، والعسجد هو الذهب ، فقد شبه ساق النيلوفر يحمل زهرة مستديرة تميل إلى الصفرة بصورة متوهمة مكونة من دبابيس ذهبية قطبها من الزبرجد ، فالمشبه به معدوم بتلك الصورة لكن أجزاءه التى تركب منها موجودة منفردة .

٢ – تشبيه معقول بمعقول : ويدخل تحته كل المعانى التى تدرك بالعقل ،

كتشبيه العلم بالحياة والجهل بالموت ، ومنه قول الشاعر :

العشق كالموت يأتي لا مَرّد له ‏ ‏ ‏ ‏ ما فيه للعاشق المسكين تدبير

فالمشبه والمشبه به من المعقولات الحقيقية ، ووجه الشبه كون كل منهما مفاجئ ولا يمكن دفعه .

ويلحق البلاغيون بالتشبيهات العقلية ، ما يعرف بالوهمى وهو ما يأتى به الشاعر من صور متوهمة متخيلة يخترعها الوهم ولا وجود لها فى الحقيقة ، ولو أدركت تلك الصور لم تدرك إلا بالحواس .

ومنه قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ‏ ‏ ‏ ‏ ومسنونة زرق كأنياب أغوال

أراد الشاعر أن يصور الأسنة بصورة مركبة مخيفة فاخترع لها مشبها بها من الوهم وهو أنياب الغول ، والمعروف أن الغول لا حقيقة له لكنه أمر يتوهمه العرب ويخافونه وجعل الخطيب القزوينى من هذا القبيل قول الله تعالى عن شجرة الزقوم ﴿إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين﴾ الصافات ٦٤-٦٥ .

وقد كذب الكفار بهذه الآية وقالوا : كيف ينبت الشجر فى النار والنار تحرق الشجر ؟ ولم يعلم هؤلاء المكذبون : أن مَن قَدَر على خلق ما يعيش فى النار ويلتذّ بها- يعنى سيدنا إبراهيم عليه السلام - فهو أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الإحراق .

ويذكر المفسرون : أن ما فى هذه الآية من قبيل التشبيه بالمُتخيَّل وذلك ردّ منهم على الملاحدة حينما طعنوا فى القرآن ، وقالوا : بأن فيه تشبيهاً بما لا يعرف ؛ إذ قاعدة التشبيه أن يكون المشبه به أعرف لدى المخاطب وأقوى دلالة على الصفة

من المشبه وهنا شبه ثمرتلك الشجرة بشئ مجهول للمخاطب، لأننا لم نر الشيطان فضلا عن رؤية رأسة فكيف وقع ذلك في القرآن وهو الكتاب المعجز ؟

وكان رد العلماء على ذلك أن قاسوا ما جاء في الآية على ما هو متعارف لدى العرب من أنهم ينسبون إلى أشياء غير موجودة لديهم ، ينسبون إليها صفات مخيفة كالغول – التي لا وجود لها في حياتهم – ومع ذلك يقولون اغتالته الغول مبالغة في هلاك إنسان ما ، ومن ثم صارت عندهم مثلا لكل ما هو غاية الإهلاك والإفناء .

فكيف يكون المعنى صحيحاً عندهم في امرئ القيس ولا يصح ذلك في القرآن عند ماشبه ثمر شجرة الزقوم في البشاعة والقبح برأس الشيطان الذى اشتهر عندهم بأنه غاية في القبح .

يقول الزمخشري : وأصل الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها إما استعارة لفظية – يعني تصريحية لأنه يشبه في الشكل –أو معنوية– بمعنى استعماله في معنى ما يطلع مطلقا فيكون كالرأس للأنف مجازاً مرسلاً – وشبه طلع هذه الشجرة – ثمرها– برؤس الشياطين ، دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض ، فيقولون في قبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ، كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض ، لا شرّ فيه ، فشبهوا به الصورة الحسنة قال تعالى على لسان النسوة عند رؤيتهن ليوسف عليه السلام – "ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم" بياناً لجماله وحسنه فشبهوه بالملك ، وقال الشهاب : لا يشترط في التشبيه أن يكون معروفا في الخارج بل يكفي كونه مركوزا في الذهن والخيال – كما في بيت امرئ

القيس والآية – فهم لم يروا الغول والشيطان ومع ذلك فهما مرتسمان فى خيال كل أحد بصورة قبيحة ، الكشاف ٣٤٢/٣ – الشهاب ٢٧٣/٧ .

ودخل فى العقلى ما يدرك بالقوى الباطنة (الوجدان) كاللذة والألم الحسيين. والشّبع والجوع وغير ذلك .

٣– تشبيه معقول بمحسوس : كقولنا المنية كالسبع ، والعلم كالنور ، والجهل ظلام ، وقد ورد هذا النوع فى القرآن الكريم كثيرا وذلك لإيضاح الأمور المعنوية وتصويرها بالصور الحسية المشاهدة ليسهل استيعابها ، كقوله تعالى ﴿والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾[1] فقد شبه الله من يدعون آلهتهم دون فائدة بمن يبسط كفيه على الماء ليشرب وما دامت الكفان مبسوطتان فلن يصل الماء إلى فمه ، لأنهما بهذه الكيفية لا يتمكنان من حمل الماء إلى الفم .

وقوله تعالى ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾[2] شبه حال من يشرك بحال من سقط من السماء فاختطفته الطير أو حملته الريح إلى مكان بعيد مهلك ، ومنه قول الشاعر :

الرأى كالليل مُسودّ جوانبه ... والليل لا ينجلى إلا بإصباح

فقد شبه الرأى فى خفائه وعدم اتضاحه إلا بعد ذكر البراهين الكاشفة عن

---

(١) سورة الرعد ١٤ .

(٢) سورة الحج ٣١ .

مضمونه بالليل فى سواده وعدم اتضاح ما فيه إلا بضوء الصبح .

٤- تشبيه محسوس بمعقول : ويجئ هذا التقسم على خلاف الأصل فى باب التشبيه لأنهم يشترطون فى المشبه به أن يكون أظهر وضوحاً من المشبه ، فالأقرب أن يكون حسيا ولا يكون عقليا إلا بعد تنزيله منزلة المحسوس وادعاء أنه فاق المحسوس فى الوضوح ومثاله : تشبيه العطر بالخلق الكريم فى استطابه النفس . وذكر السعد أن تشبيه المحسوس بالمعقول غير جائز ، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها ، ولذلك قيل : من فقد حسا فقد فقد علما ، يعنى العلم المستفاد من ذلك الحس ، وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلاً والأصل فرعاً وهو غير جائز ، فلو حاول المبالغة فى وصف الشمس بالظهور فقال : الشمس كالحجة ، كان سخيفا من القول .

وأما ما جاء فى الاستعارة من ذلك على طريق المبالغة فيصح التشبيه حينئذ، بأن يقدر المعقول محسوساً ويجعل كالأصل لذلك المحسوس على طريق المبالغة ، (مطول ٣١٢) .

وقد ذكر السبكى فى عروس الأفراح ٣١٢/٣ - أنه لا يجوز عند بعضهم تشبيه المحسوس بالمعقول ، وبه جزم الزنجانىّ فى معيار النظر ، والإمام فخر الدين - إذ المشبه به يجب أن يكون أظهر من المشبه ، ولكون المعقول فرع المحسوس لأنه مستفاد منه .

وحيث جاء - أى تشبيه المحسوس بالمعقول - فى الأشعار يؤوّل على أنه جُعِل المعقول محسوساً على سبيل المبالغة ، وهذا يستدرجك إلى أن تجعل جميع هذا النوع من بابا قلب التشبيه ، ويوضح الدسوقىّ ذلك فى قولنا : عطر

كخُلُق الكريم ، فيقول : فيُجعل الخلق كأنه أصل للعطر محسوس مثله ، والعطر المحسوس فرعه وأضعف منه ، وحينئذ فالتشبيه واقع بين محسوسين ، لكن المشبه محسوس حقيقي والمشبه به محسوس تقديرى وإن كان معقولاً حقيقة، .... ويكون من عكس التشبيه يقصد المبالغة ، وهو موجود فى باب التشبيه كثيرا نحو :

وبدا الصباح كأنّ غُرّته   وجه الخليفة حين يمتدح

فإن وجه الخليفة أضعف فى نفس الأمر فى الضياء من الصباح ، ولكنه جُعل أقوى أدّعاء ومبالغة فى مدحه فجعل مشبها به .... (شروح التلخيص ٣/٣١٢) .

تقسيم التشبيه باعتبار إفراد الطرفين أو تركيبهما أو تقييدهما :

معنى إفراد الطرف: أن يكون شيئا واحدا وليس هيئة مركبة من عدة أمور.

ومعنى تركيبه : أن يكون طرف التشبيه هيئة مؤلفة من عدة أشياء قد امتزجت وتآلفت حتى تصير فى حكم شئ واحد .

ومعنى تقييد الطرفين : أن يرتبط الطرف بوصف أو حال وهذا الارتباط لا يصل إلى درجة التركيب ، وإليك أقسام الطرفين بهذه الاعتبارات :

١- تشبيه المفرد بمفرد : كتشبيه الرجل بالبحر فى العلم ، والوجه بالقمر ، ومنه قوله تعالى ﴿هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾[1] لأن كل واحد يشتمل على صاحبه عند الاعتناق كاللباس ، أو لأن كل واحد منهما يصون صاحبه من الوقوع فى الفاحشة كاللباس الساتر للعورة وجعل الزمخشرى وجه

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

الشبه فى الآية حسياً حيث قال : لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه فى عناقه شبه باللباس المشتمل عليه ، قال الجعدى:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

وقيل : شبه كل واحد منهما باللباس للآخر لأنه يصونه من الوقوع فى فضيحة الفاحشة كاللباس الساتر للعورة .

والضجيع : المشارك فى الفراش، والعطف : الجانب (الكشاف ١/٣٣٨).

٢- تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد مثل : التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، فقد شبه التعليم بقيد كونه فى الصغر بالنقش بقيد كونه فى الحجر ، والوجه هو الثبات وعدم ذهاب الأثر ، وكتشبيه من لا يحصل من عمله على فائدة بالقابض على الماء ، فالمشبه - وهو الرجل- قد قيد بالصفة وهو عدم تحصيل فائدة من العمل ، والمشبه به القابض وقد تقيد بالجار والمجرور (على الماء) ووجه الشبه التسوية بين الفعل وعدمه . ولو لا مراعاة القيد فى الطرفين هنا لما أفاد الكلام التشبيه المقصود ، فلو أفرد الطرفان مثلاً فقيل : التعليم كالنقش ، لما أفاد الغرض المقصود ولو حذف القيد من أحد الطرفين لما افاد الغرض أيضا ، فلا يصلح أن يقال : التعليم فى الصغر كالنقش ، أو التعليم كالنقش على الحجر ، فمراعاة القيد فى الطرفين -وهو الجار والمجرور- هو الذى أدى المعنى المقصود ومن ذلك قولهم لمن يحاول أن يجمع بين شيئين لا يمكن جمعهما فى وادٍ واحد : هو كمن يجمع سيفين فى غمد ، فالجار والمجرور هنا - فى غمد- هو المعتمد فى إفادة المراد ، إذ غمد السيف لا يسع إلا سيفا واحدا ، ومثل ذلك أيضا قولهم لمن يحاول أن يحصل على شئ من مكان لا يستطيع أن يحصل عليه منه لعجزه عن ذلك ، أو لحصانة هذا المكان وعدم

القدرة على اختراقه هو كمبتغى الصيد فى عرّيسه الأسد – يعنى مأواه– فإن موطن الأسد لا يجرؤ أحد على اجتيازه فضلاً عن أن يصطاد منه ، فالقيد هنا أيضا جار ومجرور – فى عرّيسة الأسد ، ولولاه لما أدى التشبيه الغرض .

وقد يجئ القيد حالا كقولهم لمن يقوم بعمل دون الأخذ بالأدوات اللازمة لإنجاح هذا العمل هو كالحادى وليس له بعير – والحادى الذى يقوم بالغناء للإبل فيشتد سيرها – فالقيد هنا– وليس له بعير– وقع حالا ولولا اعتباره فى التشبيه لما فهم الغرض منه .

ومما جاء فى الشعر مما طرفاه مقيدان ما أورده الخطيب من قول الشاعر :

وإنّى وتزيينى بمدحى مَعْشَرًا كمعلــــق دُرًّا على خِنْزِير

فإن المشبه فيه هو المتكلم بقيد اتصافه : بتزيينه بمدحه مَعْشرًا ، فمتعلق التزين – بمدحى– داخل فى المشبه ، والمشبه به : من يعلق درا ، بقيد أن يكون تعليقه إياه على خنزير ، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر وما فى صلته وهو : أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر ، لأن الشئ غير قابل للتزين ، فالواو (وتزيينى) بمعنى مع ، إذ لا يمكن أن يقال : إنى كذا ، وإن تزيينى كذا ، لأنه ليس معنا شيآن يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم ، والآخر عن تزيينى .

لا يقال تقديره : إنى كمعلق درا على خنزير ، وإن تزيينى بمدحى معشرا كتعليق در على خنزير ، لأنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه – من حيث هو – بمعلق درا على خنزير ، بل لابد أن يكون يشبّه نفسه باعتبار تزيينه بمدحه معشرا (الإيضاح ٢/٢٤٤) .

٣– تشبيه مفرد مجرد بمقيد : مثل الشمس كالمرآة فى كف الأشل ، والغيبة

كاللحم النتن . فإن المشبه به ، في المثال الأول : المرآة بقيد كونها في كف الأشل ، وفي الثاني : اللحم بقيد كونه نتنا .

٤- تشبيه مفرد مقيد بمفرد مجرد : كقولك العلم بلا عمل كالجهل والحياة في ظل الاستعباد كالجحيم . فالمشبه هنا قيدّ في المثال الأول وهو العلم بكونه بلا عمل ، والحياة قيدت بكونها في ظل الاستعباد .

٥- تشبيه مركب بمركب بوجه مركب حسي وهو الهيئة الحاصلة من تهاوى أجرام مشرقة مستطيلة على غير نظام في جوانب شئ مظلم .

كقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فقد شبه هيئة السيوف بين الغبار المظلم وهى تعلو وتنخفض وتتلاقى وتتباعد بسرعة في أنحاء مختلفة بالليل وقد تساقطت كواكبه اللامعة في سرعة شديدة وهى تتداخل ويختلط بعضها ببعض أثناء تهاويها

ومنه أيضا قول الشاعر :

وكأن أجرام النجوم لوامعها درر نثرن على بساط أزرق

فالمشبه النجوم المضيئة وسط زرقة السماء ، والمشبه به الدرر اللامعة على البساط الأزق . فقد رأيت أن الطرفين مركبان من أشياء مجتمعة تكونت من أحوال كل من المشبه والمشبه به بخلاف المفرد .

وقد مثل الخطيب للتشبيه المركب الطرفين نقلاً عبد القاهر بقول البحترى يصف فرساً :

ترى أحجاله يَصْعَدْن فيه صعود البرْق في الغيْم الجَهامِ

الأحجال : البياض في رجل الفرس ، والجهام : السحاب الذى لاماء فيه ،

يقول الخطيب لا يريد تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق . بل مقصوده الهيئة الخاصة الحاصلة من مخالطة أحد اللونين بالآخر . يقصد مخالطة بياض أحجال الفرس الواقعة في رجليه عندما يرفعها ويخفضها مخالطة هذا البياض للون الفرس فتكون صورة خاصة وكذلك ظهور لمح البرق في قتامة الغيم . ينظر أسرار البلاغة ١٩٥ . والإيضاح ٢٤٥/٢ ويذكر البلاغيون أن التشبيه المركب على ضربين

أ- أحدهما مالا يصح تشبيه كل جزء من أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر كقول ابن المعتز يصور ظهور بياض الصبح وتغلبه على ظلمة الليل واجتماعهما بهذه الصورة وعلى تلك الهيئة

غدا والصبح تحت الليل بادٍ كطرف أشهبٍ مُلقى الجلال

غدا أي الساقي . بادٍ ظاهر . الطِّرْف الفرس الكريم . الأشهب يراد به هنا الأبيض . الجلالُ غطاءُ الفرس وهو للفرس كالثوب للإنسان يقول عبد القاهر

قصد التشبيه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعا . وتأملت حالهما معا . (يعني نظرت إلى هيئة اجتماع بياض النهار الكثير مع بقية الليل فقد شبّه ذلك بهيئة الفرس الأبيض الذى أزيل عن معظم جسمه الغطاء وبقى منه جزء قليل مغطى . فالوجه اجتماع بياض كثير مع سوادٍ قليل)

ثم يقول عبد القاهر وأراد أن يأتي بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخرَ ، ولم يرد أن يشبه الصبح على الإنفراد والليل على الإنفراد.

وينبغي أن تعلم أن الوجه في إلقاء الجُـلّ أن يريد أنه أداره عن ظهره ، وأزاله عن مكانه حتى تكشّف أكثر جسده ، لا أنه رمى به جملة حتى انفصل

منه ، لأنه إذا أراد ذلك ، كان قَصَد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر في الليل ، ولم يشاكل قوله في أول البيت (والصبح تحت الليل بادٍ) ...

ولم يصح هنا فَضُّ تركيب هذا التشبيه ، لأن الجلال في البيت في مقابلة الليل ، ولوشبَّه الليل بالجلال كان يقال : كأن الليل جلالٌ لم يكن ذلك مقبولا كما لا يصح تشبيه الصبح ببياض الفرس وحده لأن هذا يضيع القصد من التشبيه هنا ويخل بغرض الشاعر .

ومما لا يصح فيه فَكُّ التركيب وتشبيه كل جزء من أحد الطرفين بالآخر قول الشاعر :

كـــأنما المرِّيخ والمُشْتَرى قُدَّامَهُ في شامخ الرِّفْعَة

مُنصرفٌ بالليل عن دَعْوةٍ قدْ أسْرِجتْ قدَّامه شَمْعة

فقد شبهتَ هيئة المريخ مع المشترى الذى يتقدمه واجتماعهما على تلك الصورة بهيئة رجل منصرف بالليل عن دعوة بحيث أدركه الظلام فأوقدت له شمعة تضيئ له الطريق .

فالمريخ في مقابلة المنصرف عن الدعوة ، ولو فُضّ التركيب فقيل : كان المريخ منصرف بالليل عن دعوة ، دون مراعاة حال المشترى معه لفسد المعنى المراد .

ب- ما يصح تشبيه كل جزء من أجزاء أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر غير أن الحال يتغير فيذهب جمال التشبيه وروعته ، ومن ذلك قول الشاعر :

وكأن أجْرامَ النّجُوم لوامعاً دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أزْرَقِ

فلو فضَضْت التركيب وقلت : كأن النجوم دُررَ ، وكأن السماء بساط

أزرق لكان التشبيه صحيحاً ، لكنه يذهب جمال التشبيه حيث قصد فيه إلى تشبيه هيئة بهيئة ... ويقول عبد القاهر موضحاً ذلك :

(فأنت وإن كنتَ إذا قلتَ : كأن النجوم درر ، وكأن السماء بساط أزرق، وَجَدْتَ التشبيه مقبولاً معتاداً مع التفريق ، فإنك تعلم بُعْدَ ما بين الحالتين ، ومقدار الاحسان الذى يذهب من البيْن ، وذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئة التى تملأ النواظر عجباً ، وتستوقف العيون ، وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى من طلوع النجوم مؤتلفة مفترقة فى أديم السماء وهى زرقاء زرقتها الصافية التى تخدع العين ، والنجوم تتلألأ وتبرق فى أثناء تلك الزرقة ، ومَنْ لك بهذه الصورة إذا فرّقْتَ التشبيه ، وأزلتَ عنه الجمع والتركيب ؟) [انظر أسرار البلاغة ١٩٣] .

٦- تشبيه مفرد بمركب : ومثاله : ما سبق فى التشبيه الخيالى كأن محمر الشقيق ... الخ .

٧- تشبيه مركب بمفرد ، وهذا النوع قليل ومثاله قول أبى تمام :

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمساً شابَــهُ ... زهرُ الرُّبـا فكأنمــا هو مُقمِر

شبه الشمس فى ظهور ضوئها على الرياض الخضراء وقد تساقطت أشعتها من خلال الغصون على الأرض فذهبت حدة إشراقها ، شبه ذلك بليل مقمر ، فالمشبه به مفرد وإن كان مقيداً والمشبه مركب من عدة أمور منها هيئة خاصة وهى الشمس فى إشراقها على الخضرة وما فعلته هذه الخضرة فى الأشعة من انكسار الضوء .

- كما ينقسم التشبيه باعتبار وحدة الطرفين أو تعددهما إلى عدة أقسام هى :

أ- ما تعدد فيه كل من الطرفين - المشبه والمشبه به - وكانت المشبهات مجتمعة فى طرف والأمور المشبه بها فى طرف آخر : ويعرف بالتشبيه الملفوف، كقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العنّاب والحشف البالى

فالمشبه متعدد وهو قلوب الطير الرطبة واليابسة ، والمشبه به كذلك وهو العناب المقابل للقلوب الرطبة ، والوجه فيه شدة الحمرة ، والحشف البالى المقابل للقلوب اليابسة ، ووجه الشبه اليبوسة والضمور .

ب- ومن هذا القبيل ما يعرف بالتشبيه المفروق ، وهو ما تعدد فيه الطرفان وكان كل مشبه مقترنا فى الذكر بالمشبه به ومنه قول الشاعر :

فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة   والنبت فيروزج والماء بلور

وقوله :

النشر مسك والوجوه دنا   نير وأطراف الأكف عنم

وقوله :

بدت قمرا ومالت غصن بان   وفاحت عنبرا ورنت غزالا

فشبهها بالقمر فى الحسن وبالغصن فى الاعتدال ، وبالعنبر فى طيب الرائحة وبالغزال فى الرشاقة .

جـ- ومن التشبيه ما يعرف بتشبيه التسوية بأن تسوى بين عدة مشبهات فى مشبه به واحد ، ومنه :

صدغ الحبيب وحالى   كلاهما كالليالى

وثغره فى صفاء   وأدمعى كاللآلى

لقد شبه الشعر المتدلى على جانب وجه محبوبه وحظه المنكوس بالليالى

السود ، وفى البيت الثانى شبه ما بثغر الحبيب ودموعه هو باللؤلؤ الصافى .

د- ومن التشبيه ما يعرف بتشبيه الجمع : وهو ما تعدد فيه المشبه به دون المشبه كقول البحترى .

كأنما يبسم عن لؤلؤ   مُنَضَّدٍ أو بَرَد أو أقَاح

يشبه أسنانه باللؤلؤ وحبات الثلج وزهر الأقحوان فى شدة البياض .

هذا والتشبيه المتعدد وان كان لا يصل إلى درجة التشبيه المركب فإن له من الحسن والروعة مكانا بالغ الأهمية لما فيه من وجازة التعبير والجمع بين العديد من التشبيهات المتجانسة فى تعبير واحد منسق ومرتب .

ويفرق البلاغيون بين التشبيه المتعدد والمركب من وجهين :

أ- التشبيه المتعدد يمكن أن يستقل فيه كل تشبيه بنفسه ولا يكون ذلك مؤثرا فى الآخر ، ولا يتأتى هذا فى المركب فلا يمكن تحليله إلى عدة تشبيهات وإلا فسد المعنى .

ب- لو تغير موضع التشبيه المتعدد فقدمت أحد التشبيهات على بعض لم يختل الكلام ولو حدث تعديل فى تركيب التشبيهات المركبة لذهب الغرض وفسدت صورة التشبيه .

فلو جعلنا التشبيه فى بيت امرئ القيس من قبيل التشبيهات المفردة فقلنا مثلاً : كأن قلوب الطيور رطبة العناب ، وكأن قلوبها يابسة الحشف البالى ، فإن المعنى لن يتغير إلا أن ذلك يذهب حسن التشبيه ، كما لا يضر أن نقدم أحد التشبيهين على الآخر فى الذكر .

بخلاف التشبيه المركب فإنه لا يصح أن يجزأ فيه التشبيه ويجعل كل جزء من المشبه فى مقابل جزء من المشبه به ، لأن الصورة لا تؤدى الغرض إلا من

خلال هذا التركيب ، ففى بيت بشار السابق لا يجوز أن نقول : كأن مثار النقع الليل ، وكأن السيوف كواكب تتهاوى ، لأن جعل التشبيه على هذا الوضع سيخل بغرض الشاعر المذكور توضيحه عند البيت سابقاً .

جـ- إذا حذف بعض التشبيهات المتعددة لا يتغير حال الباقى فى إفادة ما كان يفيده قبل الحذف ففى قولنا : زيد كالأسد بأساً ، والسيف مضاء ، والبحر جوداً ، لو أسقط واحد من الثلاثة لم يتغير حال الباقى فى إفادة معناه بخلاف المركب فإن إسقاط أى جزء من الكلام يفسده ويذهب بصورة التشبيه كلية .

دراسة وجه الشبه

وجه الشبه هو المعنى الذى يشترك فيه الطرفان تحقيقاً أو تخييلاً [1] ، لأن هذا المعنى (الوصف) غالبا ما يكون من الصفات الواضحة فى المشبه به كوصف الجرأة فى تشبيه الشجاع بالأسد وهو متحقق بذاته فى الطرفين أما فى

---

(١) فإذا لم يكن الوجه مشتركاً بين الطرفين لا يصلح أن يكون وجه شبه ومنه قولهم : النحو فى الكلام كالملح فى الطعام ، من حيث أن القليل يصلح والكثير يفسد ، لأن هذا يتحقق فى الملح ولا يتحقق فى النحو لأنه بترك بعض قواعد النحو يفسد الكلام .. ومن ذلك أيضاً قول الشاعر :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم ... فكـــأننى سبابة المتندم

لأن الوجه متحقق فى المشبه وغير متحقق فى المشبه به (سبابة المتندم) .

لأن النادم يعض سبابته لاسبابة غيره ، ومن ثم فالألم واقع عليه لا على غيره والذى تحقق فيه كون وجه الشبه متحققا فى الطرفين قول الشاعر :

لكلفتنى ذنب امرئ وتركته ... كذى العر يكوى غيره وهو ارتع

فإن من عادة العرب أن يتركوا الجمل المصاب بالجرب ويوقعون الكىّ على غيره اعتقادا منهم بأن رؤية الجمل الأجرب غيره يكوى بالنار يؤدى إلى شفائه ، فقد شبه الشاعر نفسه فى إيقاع العقوبة عليه مع أنّ غيره هو المذنب بحال البعير السليم والأجرب حيث يكوى السليم ويترك الأجرب .

قول التنوخي :

وكأن النجوم بين دجاه   سنن لاح بينهنّ ابتداع

فإن الوجه موجود تحقيقا في المشبه وليس كذلك في المشبه به وإنما وجوده متخيل ، لأن السنن والبدع من الأمور المعقولة التي لا تتصف بصفة المحسوسات ، والشاعر هنا شبه انتشار النجوم في السماء وقد تخللتها قطع مظلمة من سواد الليل شبه ذلك بالسنن الواضحة التي اختلط بها ألوان من البدع التي ليست من الإسلام[1] ، ووجه الشبه هو الصورة الحاصلة من وجود أشياء مضيئة في جوانب شيء مظلم ، وإنما ساغ للشاعر أن يشبه السنن بالبياض والبدع بالظلام ، لما شاع وعرف من وصف السنة بالبياض والكفر بالظلمة ، ومن ثم تخيل أن للسنن وكل ما هو شرع إشراق وضياء وأن لكل ما هو بدعة ظلمة[2] .

ومن هذا القبيل تخيل أن ليوم الفراق سواد وظلمة وليوم اللقاء اشراق وبياض وأن لقلب من لم يعشق سواداً ، لأن نور الحب لم يشرق فيه كما في قول الشاعر :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه   يوم النّوى وفؤاد من لم يعشق[3]

---

(١) ويحتمل وجها آخر وهو أراد : أن سواد الظلام يزيد النجوم حسنا ، فإنه لما كان وقوف العاقل على عوار الباطل يزيد الحق نُبلا في نفسه ، وحسنا في مرآة عقله ، جعل هذا الأصل من المعقول مثالا للمشاهد المبصر هناك .

(٢) وعلى ذلك قوله تعالى ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ .

(٣) فإنه لما كانت أيام المكاره توصف بالسواد توسعاً ، فيقال اسود النهار في عينيّ ، وكان الغزل يدّعى القسوة على من لم يعشق ، والقلب القاس يوصف بالسواد توسّعا - تخيّل يوم النوى وفؤاد من لم

وكذلك تصور أن للظلم سواد وللانصاف نور وبياض[1] . ومنه تشبيه العطر بخلق الكريم فى قول الشاعر :

أهديتُ عطرا مثل طيب ثنائه   فكأنما أهدى له أخلاقُه

أقسام وجه الشبه باعتبار الحسية والعقلية والإفراد والتركيب

ينقسم وجه الشبه إلى سبعة أقسام بهذا الاعتبار وهى :

١- وجه الشبه الواحد الحسى مثل تشبيه السفينة بالجبل (فى الضخامة) ولا يكون طرفاه إلا مفردين حسيين ، لأن تركب الطرفين يقتضى تركب وجه الشبه ، ولا يجئ الوجه الحسى من الطرف العقلى .

٢- وجه الشبه الواحد العقلى كالهداية فى تشبيه أصحاب الرسول عليه السلام بالنجوم ، واستطابة النفس فى تشبيه العطر بالأخلاق الكريمة ، ولا يكون الطرفان إلا مفردين ، والوجه العقلى قد ينتزع من طرفين عقليين كما فى تشبيه وجود الشئ غير النافع بالعدم ، فى عدم الفائدة ، ومن طرفين حسيين كتشبيه أصحاب الرسول عليه السلام بالنجوم فى الهداية ، ومما كان

يعشق شيئين لهما سواد ، وجعلهما أعرف بالسواد وأشهر من الظلام ذاته فشبه الظلام بكل من يوم النوى وقلب من لم يعشق .

(١) ومن ذلك قول الشاعر مشبها إشراق النار وسط سواد الفحم باجتماع الظلم مع الانصاف فى قوله:

فانهض بنار إلى فحم كأنهما   فى العين ظُلْمٌ وانصاف قد اتفقا

فقد تخيل الشاعر الحق منيرا والظلم مسودًا فشبه النار والفحم مجتمعين بالظلم والانْصاف مجتمعين .

فيه الطرفان مختلفان – بأن كان المشبه عقليا والمشبه بـه حسيا – تشبيه المنية بالسبع فى الاغتيال ، أو كان المشبه حسيا والمشبه به عقليا كالعطر والأخلاق الكريمة .

٣– وجه الشبه المركب الحسى : وهـو أن يكـون فى الطرفين وصفان أو عدة أوصاف يتكون من اجتماعهـا صـورة واحـدة ، ولا يجئ إلا من طرفين حسيين سـواء كانا مفردين أو مركبين أو مختلفين ، فممـا جـاء مـن طرفين مفردين قول الشاعر :

وقد لاح فى الصبح الثريّا كما ترى ... كعنقود ملاّحية حين نوّرا

فقد شبه الثريا بعنقود العنب قبل تمام نضجـه ، فالطرفان مفردان ، ووجـه الشبه الهيئة الحاصلة من اجتماع أجسام بيض مستديرة صغيرة فى مـرأى العين وقد اجتمعت على هيئة مخصوصة فهى ليست تامة الالتصاق ولا تامة الافتراق.

ومثال ما تركب فيه الطرفان بيت بشار السابق[1] ،

ومثال ما جاء من طرفين مختلفين فى إفراد أحد الطرفين وتركب الآخر : مـا مر من تشبيه الشقيق بأعلام اليـاقوت مـن حيـث الهيئـة الحاصلـة مـن اجتمـاع أشياء حمراء متحركة منصوبة على عمود أخضر .

ومنه ما مر من تشبيه ضوء النهار المشمس الذى خالط النبات بالليل المقمر.

---

(١) فوجه الشبه : الهيئة الحاصلة من هُوىّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار ، متفرقة فى جوانب شئ مظلم ، ومن ذلك قول الشاعر :

وكأن أجرام النجوم لوامعا ... درر نثرن على بساط ازرق

فإن وجه الشبه : هو الهيئة الحاصلة من تفرق أجرام متلألئة مستديرة صغار المقادير فى مرأى العين على سطح جسم أزرق صافى الزرقة .

هذا ، وقد ذكر البلاغيون أن التشبيهات ذات وجه الشبه المركب الحسى ليست فى درجة واحدة من الحسن وإنما تتفاوت فى هذا الحسن حتى تبلغ الدرجة العالية ، ويرجع هذا التفاوت إلى ما يبذله الأديب فى تتبع صفات الطرفين وأخذ ما يلائم منها لبناء صورة التشبيه ، كمراعاة ملاءمة المقدار للمقدار والشكل للشكل والحركة للحركة ، وقد أوردوا أنواعا بديعة من المركب الحسى مما قاله الشعراء . وجعلوا ذلك على ضربين :

أ- الضرب الأول : ما كان وجه الشبه فيه مكونا من هيئة الحركة مضافا إليها بعض الصفات الأخرى للطرفين كقول ابن المعتز :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل   لمـــا بدت طالعة فوق الجبل

فقد تأمل الشمس عند طلوعها ووازن بينها وبين المرآة فى كف الأشل من حيث الاستدارة والإشراق واللمعان ، ووجد فى الشمس حركة متصلة عند طلوعها تظهر إذا أحدّ النظر فيها ، ومثل ذلك فى المرآة وقد أحدثت هذه الحركة تموجا فى الضوء واضطرابه ، ومن خلال هذه الألوان والأشكال بين الشمس والمرآة ركب وجه الشبه وهو الهيئة المجتمعة من الاستدارة والإشراق والحركة السريعة ومما نشأ عن ذلك من اضطراب الضوء وتموجه ، ومراعاة دخول الحركة فى وجه الشبه هو الذى أكسب التشبيه الحسن والجمال ، ولو اقتصر وجه الشبه على الاستدارة والإشراق دون الحركة لما كان له هذا الحسن ولأصبح تشبيهاً لا دقة فيه ولا براعة ويوضح الإمام عبد القاهر براعة التشبيه فى هذا البيت قائلا : "ومما يَقْوَى فيه أن يكون سبب غرابته قلة رؤية العيون له ما مضى من تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشلّ ، وذلك : أن الهيئة التى تراها فى حركة المرآة إذا كانت فى كف الأشلّ مما يرُى نادرا وفى الأقلّ ،

فربما قضى الرجل دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة في يد مرتعش ، هذا ، وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرآة في يد الأشلّ فقط بل النكتة والمقصود : فيما يتولّد من دوام تلك الحركة من الإلتماع وتموّج الشعاع ، وكونه في صورة حركات من جوانب الدائرة إلى وسطها ، وهذه صفة لا تقوم في نفس الرائي المرآة الدائمة الإضطراب ، إلا أن يستأنف تأمّلاً، وينظر متثبتاً في نظره متمهّلاً ، فكأنّ ههنا هيئتين كلتاهما من هيئات الحركة : إحداهما : حركة المرآة على الخصوص الذي يوجبه ارتعاش اليد ، والثانية : حركة الشعاع واضطرابه الحادث من تلك الحركة .

وإذا كان كون المرآة في يد الأشلّ مما يرى نادرا ، ثم كانت هذه الصفة التي هي كائنة في الشعاع إنما تُرى وتُدرك في حال رؤية حركة المرآة بجهد وبعد استئناف إعمال للبصر ، فقد بَعُدَتْ عن حدّ ما تعتاد رؤيته مرتين ، ودخلت في النادر الذي لا تألفه العيون من جهتين فاعرفه ، أ.هـ (أسرار البلاغة ١٨٥) .

ومما يندرج تحت ذلك أيضاً قول المهلبيّ الوزير يصف إشراق الشمس عند الطلوع:

والشمس من مشرقها قد بدت   مُشْرقة ليس لها حاجب

كأنها بُوتَقَة أُحْمِيَتْ   يجول فيها ذهب ذائب

فإن البُوتَقَة إذا أحميت وذاب فيها الذهب ، تشكّل بشكلها في الاستدارة ، وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ، لما في طبعه من النعومة ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض ، لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم ، ولذلك لا يقع فيه غليان على الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلّله الهواء .

وكلما روعيت الحركة مع الأوصاف التي تكون منها وجه الشبه ازداد

التشبيه دقة وحسنا كما فى قول الصنوبرى يصف غديرا فى حديقة :

كــأن فى غدرانها		حواجبا ظلت تُمطُّ

فإنه يصف ماء الغدير وقد حركته الريح فأوجدت فيه أشكالاً تظهر أولاً فى شكل أنصاف الدوائر ثم تتباعد أطرافها ويقل انحناؤها مع سير الماء حتى تقرب من الاستواء ، وبحث عن صورة هذا فوجدها فى حاجب الانسان إلا أنه ثـابت لا يتحرك وحتى يخف تقوسه ليكون مثـل حركـة الريـح فـى المـاء أدخـل علـى الحواجب وصفاً يحقق الحركة ويقلل من تقوسها حتى يتم له الشبه ، فقال إنهـا ظلت تمط شيئاً فشيئاً حتى انمحى تقوسها ، وبذلـك انتقـل التشـبيه مـن درجـة القرب والابتذال إلى درجة البعد والحسن .

ب– الضرب الثانى : ما كان وجه الشبه فيه هيئـة حسية مركبـة مـأخوذة مـن حركة واحدة للطرفين من غير نظر إلى غيرها من سائر الصفات ، أى أن يراعى من سائر الحركات حركة واحدة يجعلها مدار التشبيه يقـول عبـد القـاهر موضحـا سمـة هذا الضرب "وأما هيئة الحركة مجردة عن كل وصف يكون فى الجسم ، فيقع فيها نوع من التركيب ، بأن يكون للجسم حركات فى جهات مختلفة ، نحـو أن بعضهـا يتحرك إلى يمين والبعض إلى شمال ، وبعض إلى فوق ، وبعض إلى قُدَّام ونحو ذلـك ، وكلما كان التفاوت فى الجهـات التى تتحـرك أبعـاض الجسـم إليهـا أشـدّ ، كـان التركيب فى هيئة المتحرك أكثر ، فحركـة الرحـا والـدولاب ، وحركـة السـهم لا تركيب فيها لأن الجهة واحدة ، ولكن فى حركة المصحف فى قوله :

وكأن البرق مصحف قارٍ		فانطباقـــا مرةٍ وانفتاحا

تركيـب ، لأنـه فـى إحـدى الحـالتين يتحـرك إلى جهـة غـير جهتــه فالحالــة الأخرى، ثم يوضح جمال التشبيه فى البيت فيقول :

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التى تجدها العين له من انبساط يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوه انضمام ، ثم فَلّى نفسه عن هيئات الحركات لينظر أيها أشبه بها ، فأصاب ذلك فيما يفعله القارئ من الحركة الخاصة فى المصحف ، إذا جعل يفتحه مرة ويطبّقه أخرى .

ولم يكن اعجاب هذا التشبيه لك وايناسه إياك لأن الشيئين مختلفان فى الجنس أشدّ الاختلاف فقط ، بل لأنْ حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتّمه فبمجموع الأمرين شدة ائتلاف فى شدة اختلاف حلا وحسن ، وراق وفتن .

ثم يقول ومما جاء فى التشبيه معقودا على تجريد هيئة الحركة ، ثم لطف وغرُبَ لما فيه من التفصيل والتركيب ، قول الأعشى يصف السفينة فى البحر وتقاذف الأمواج بها :

يَقِصُّ السفينُ بجانبيْه كما ... يَنْزُو الرُّبَاحُ خلاً له كَرْعُ

(ومعنى يَقِصُّ السفين : يثب) الرُّباح : الفصيل ، وقيل : القرد ، والكَرْعُ : ماء السحاب .

شبّه السفينة فى انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل فى نزوه ، وذلك أن الفصيل إذ انزا –ولا سيما فى الماء – وحين يعتريه ما يعترى المُهْرَ ونحوه من الحيوانات التى هى فى أول النشء ، كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه فى جهات مختلفة ، ويكون هناك تَسفُّلٌ وتَصَعُّدٌ على غير ترتيب ، وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين فى الأخرى ، فلا يتبيّنه الطرف مُرتفعا حتى يراه مُنْحطًّا مُتَسفّلاً ، ويهوى مرة نحو الرأس ومرة نحو الذّنب ، وذلك أشبه شئ بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج (انظر أسرار البلاغة ١٥٢–١٨٣) .

ويتفاوت التشبيه فى هذا النوع فى الحسن على قدر تفاوت قوة هذه الحركة وضعفها وكثرة الجهات التى تذهب فيها الحركة أو قلتها ، ومن ذلك قول ابن وهب فى وصف روضة :

حُفَتْ بسرْو كالقيان تلَحَّفتْ خُضْر الحرير على قوام مُعتدل

فكـأنّها والريح جاء يُميِّلها تبغى التَّعَانُق ثم يمنعهـا الخَجل

فى البيت الأول شبه شجر السرو فى طوله وخضرة أوراقه بالجوارى ذوات القوام المعتدل وقد التحفن بالحرير الأخضر ، ووجه الشبه :

الهيئة الحاصلة من أجسام معتدلة القامة تحيط بها أجسام لونها أخضر وهذا الوجه لا حركة فيه ، أما فى البيت الثانى ففيه تشبيه حركة هذا الشجر والريح تميل أغصانه بعضها إلى بعض ثم عودة الشجر إلى أصل وضعه من الاعتدال بحركة من يتقدم لمعانقة حبيبه بعيدا عن الرقباء ثم يفاجأ بمن يراقبه فيرتد إلى مكانه فى سرعة المنزعج ، والتفصيل الذى حَسَّن التشبيه هنا أنه راعى الحركتين : حركة الاستعداد للدنوّ والعناق وحركة الرجوع ، وقد لاحظ ما يكون فى الحركة الثانية من سرعة زائدة فأدى المعنى أحسن أداء ، لأن حركة الشجرة فى رجوعها واعتدالها أسرع من حركة خروجها من مكانها المعتدل ، وكذلك حركة من يدركه الخجل فى الرجوع بسرعة ، ووجه الشبه : هو الهيئة الحاصلة من تحرك الجسم حركتين متغايرتين إلى جهتين مختلفتين تحدث إحداهما قرب لقاء جسم بآخر ، وتُحدث الثانية سرعة الافتراق بينهما ، وهى هيئة منتزعة من الحركة مجردة عن كل وصف آخر من صفات الطرفين ، ومن ذلك قول امرئ القيس .

مِكَرّ مِفَرّ مُقبل مُدْبر معـا كجلمود صخر حطّه السيل من عَل

فهو يصور الحركة المتواصلة فـى الجهات المتعـددة ، فقـد شبـه الجواد فـى سرعة حركته حتى تراه فى لحظة واحدة يكر ويفر ويقبل ويدبر ، فبينمـا تـرى مؤخرته إذا بك ، ترى صدره ، وقد شبهه بجلمود الصخر وقد دفعه السيل من أعلى الجبل ، فهو يتحرك حركات متواصلة بقوة الاندفاع تريك جوانـب هـذا الجلمود كلها بنظرة واحدة فى آن واحـد ، والوجـه حركـة الشـى إلى جهـات متعددة فى سرعة فائقة تكاد ترى جوانبه كلها فى وقت واحد .

– وكما يقع التركيب فى هيئة الحركة مجردة عن غيرهـا مـن بقيـة أوصـاف الجسم ، يقع كذلك فى هيئة السكون .

يقول عبد القاهر : "واعلم أنه كما تعتبر هيئة الحركة فى التشبيه ، فكذلـك تعتبر هيئة السكون على الجملة وبحسب اختلافه ، نحو هيئة المضطجع ، وهيئـة الجالس ونحو ذلك .

فإذا وقع فى شئ مـن هيئـات الجسـم فـى سـكونه تركيـب وتفصيـل لطـف التشبيه وحسن ، كقول المتنبى فى صفة كلب الصيد :

يُقعِى جلوس البدوى المُصْطَلى بـــــأرْبعٍ مَجْدُولَةٍ لم تُجْدَلِ

فقد اختص هيئة البدوى المُصطلى ، فى تشبيه هيئة سـكون أعضـاء الكلـب ومواقعها فيها .

ولم ينل التشبيه حظا من الحسن إلا بـأن فيـه تفصيـلا مـن حيـث كـان لكـل عضو من الكلب فى إقعائه موقع خاص ، وكان مجموع تلك الجهات فى حكـم أشكال فى حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجئ منها أشكال خاصة ... أ.هـ .

فالمتنبى يصور هيئة الكلب فى جلوسـه علـى إليتيْه ورجليـه ناصبـا ذراعيـه بصورة البدوى وهو يستدفئ بالنار جالسا على إليتيه رافعا ركبتيه ، مـادًا يديـه

إلى النار ، وهذه الصورة مركبة من عدة أوضاع كلها ساكنة لا حركة فيها ، تراها في وقوع كل عضو من أعضاء الكلب والبدوى في موقعه الخاص .

ووجه الشبه : الهيئة المركبة الحاصلة من وقوع الأعضاء لكل من المشبه والمشبه به في مواقعها الخاصة .

ويمثل عبد القاهر لهذا النوع أيضا بعدة أمثلة منها قوله : ومن لطيف هذا الجنس قول الشاعر في صفة المصلوب (وهو الذى يشد على خشبة تشبه الصليب مادا ذراعيه عليها)

كأنه عاشقٌ قد مد صفحته ... يومَ الوداع إلى توديع مرتحل

أو قائم من نعاس فيه لُوثَتُه ... مواصل لتمطيه من الكسل

ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل ، ولو قال : كأنه مُتَمطٍّ من نعاس ، واقتصر عليه ، كان قريب المتناول ، لأن الشبه إلى هذا القدر يقع في نفس الرائى المصلوب ، لكونه من حد الجملة (أى بلا تفصيل) فأما بهذا الشرط وعلى هذا التقييد الذى يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر ، وقوة من التأمل ، وذلك لحاجته أن ينظر إلى غير جهة ، فيقول : هو كالمتمطّى ، ثم يقول المتمطّى يمدّ ظهره ويديه مدّة ، ثم يعود إلى حالته ، فيزيد فيه أنه متواصل لذلك ، ثم إذا أراد ذلك طلب علته ، وهى قيام اللوثة والكسل في القائم من النعاس ، وهو أصل فيما يزيد به التفصيل ، وهو : أن يثبت في الوصف أمراً زائداً على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة وسبب .

وحديث عبد القاهر هنا عن البيت الثانى حيث شبهت هيئة المصلوب في سكونه وثبات ذراعيه ورجليه على الخشب بهنية القائم من النعاس ومازال فتور النوم والإسترخاء معه فيتمطّى ويستمر في هذا التمطى لإذهاب تلك

اللوثة لينشط ، واعتبر فـي التشبيه جهات ثلاث هي : التمطي المتواصل ، واللوثة والكسل ، ولو اقتصر على ذكر كونه متمطيا فقط دون أن يذكر كونه متواصلا بسبب اللوثة والكسل لما أفاد الغرض ، وكان من التشبيه القريب المتناول .

وأما البيت الأول ففيه كذلك تشبيه هذا المصلوب بالعاشق الذى مد ذراعيه وعرض صدر مودعاً حبيباً يطول عودته ، وقد تجمدت حواس ذلك العاشق ومالت عنقه ، واصفر وجهه .

ووجه الشبه : هيئة السكون الحاصل من وجود أجسام إنسانية ساكنة الحركة تميل أعناقها ووجوهها المصفرّة فى شكل خاص

فقد اعتبر هيئة سكون عنقه ، وصفحته فى حال امتدادها ، واعتبر مع ذلك السكون صفة اصفرار الوجه بالموت ، لأن تلك الهيئة موجودة فى العاشق المادّ عنقه وصفحته (عرض صدره) لوداع المعشوق

(ينظر أسرار البلاغة ١٨٦ وشروح التلخيص ٣/٣٧٣-٣٧٤)

٤- القسم الرابع من أقسام وجه الشبه وجه الشبه المركب العقلى كقوله تعالى ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقيعَةٍ يحسَبُه الظّمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئا ووجد الله عندهُ فوفاه حسابَه﴾(١) فالمشبه هيئة أعمال الكفار التى يعملونها فى الدنيا وتظهر فى أعينهم جميلة لكنها فى واقع الأمر لا خير فيها ولا ثواب عليها لفقدها شرط قبول العمل وهو الإيمان، والمشبه به هيئة السراب بصحراء واسعة يظنه الظمآن ماء فيجهد نفسه فى

---

(١) سورة النور ٣٩ .

الوصول إليه فلا يجد شيئاً ، ووجه الشبه الهيئة العقلية الحاصلة من المنظر والأمل المطمع والنهاية المؤيسة والتشبيه منتزع من مجموعة أمور قُرن بعضها إلى بعض ، وذلك أنه روعى من الكفار فعل مخصوص ، وهو حسبان الأعمال نافعة لهم ، وأن تكون للأعمال صورة مخصوصة وهى صورة الأعمال الصالحة التى وعد الله تعالى بالثواب عليها بشرط الإيمان بـه وبرسله عليهم السلام . وأنها لا تفيدهم فى العاقبة شيئاً ، وأنهم يلقون فيها عكس ما أمّلوه وهو العذاب الأليم ، وكذا فى جانب المشبه به وهو السراب فقد روعى فيه أن يكون بقيعة – وهى المنبسط المستوى من الأرض – حتى يشتد التماعه فيزداد الظمآن أملا فى تحقيق مراده من رى ظمئه . وأن هذا السراب حسبه الظمآن ماء على الحقيقة ، ويكلّف نفسه السعى إليه لتحقيق مراده . ثم يخيب أمله عند الوصول إليه، وليس هذا فقط بل يجد العقوبة تنتظره بدلا من إرواء ظمئة.

وقد مثّل الله سبحانه وتعالى أعمال الكفار فى موضع آخر بالرماد الذى اشتدت به الريح فى قوله تعالى ﴿الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد﴾ [سورة ابراهيم ١٨- وانظر الكشاف ٣٧٢/٢]

والمراد من التشبيه هنا أيضا عدم نفع أعمال الكفار مع حسبانهم لها نافعة لكونها مبنية على غير أساس ، فقد فقدت شرط قبول العمل وهو الإيمان بالله وبرسله ، كما سبق ، وقد شبهت تلك الأعمال التى اعتقدوا نفعها مع أنها لا تفيدهم فى الآخره شيئا برمادا اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، فلا يرون لأعمالهم أثرا من ثواب كما لا يقدر من الرماد المُطيّر فى الريح على شئ .

وانظر إلى بلاغة هذا التشبيه ، فقد روعى فى جانب المشبه به أن يكون

رمادا . لأن الرماد أخف من التراب فيسهل أن تطيّره الريح ولوهادنة . لكنه هنا روعي أن يشتد بهذا الرماد الريح . وروعي أن تكون الريح عاصفة لتشتد قوتها وتزداد فعالية وكل هذه الأمور تفيد أن هذا الرماد المشبه به العمل لا يمكن أن يبقى له أثر مع تلك الريح العاصفة ومنه قوله تعالى ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾[1] فالمشبه اليهود في حملهم التوراة ولا يعملون بها وتعبهم في حفظها ولا يفهمون حقيقة نصوصها بحال الحمار يحمل كتب العلم النافعة ويتعب في حملها وهو جاهل بما فيها ووجه الشبه الهيئة العقلية الحاصلة من حرمان الانتفاع بأحسن نافع مع تحمل التعب في استصحابه

يقول الإمام عبد القاهر عن هذا القسم ثم إن هذا الشبه العقلي ربما انتزع من شئ واحد كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل

وربما انتزع من عدّة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد لا سبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما

ومثال ذلك قوله عز وجل ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ﴾ الآية الشّبة منتزع من أحوال الحمار ، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يحسّ بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، لا يفرّق

---

(١) سورة الجمعة ٥

بينهما وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شئ ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ، ويكدّ جَنْبَيْه .

فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ، ونتيجة لأشياء أُلِفَت وقرن بعضها إلى بعض بيان ذلك أنه احتيج أن يراعى من الحِمَار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً ، وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلث ذلك بجهل الحمار ما فيها ، حتى يحصل الشبه المقصود . ثم إنّه لا يحصل من كل واحدٍ من هذه الأمور على الانفراد ، ولا يتصور أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه ، من غير أن يقف الأول على الثانى ، ويدخل الثانى فى الأول ، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لا يتعلق أيضاً بحمل الحِمَار حتى يكون المحمول الأسفار ، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره – فما لم تجعله كالخيط الممدود ولم يُمْزَج حتى يكون القياس قياس أشياءِ يبالغ فى مِزَاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد ، بل تبطل صورها المفردة التى كانت قبل المزاج ، وتحدث صورة خاصة غير اللواتى عهدت ، وتحصل مذاقة لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء من غير امتزاج ، فرضت مالا يكون لم تتم المقصود ولم تحصل النتيجة المطلوبة ، وهى الذم بالشقاء فى شئ يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة ، مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول لتلك الفائدة ، واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة ، من غير أن يكون الاستصحاب سبباً إلى نيل شئ من تلك المنافع والنعم .

التشبيه المعقود على أمرين : ومثال ما يجئ فيه التشبيه معقوداً على أمرين دلا أنهما لا يتشابكان هذا التشابك قولهم "هو يصفو ويكدُر" لأنك وإن كنت

أردت أن تجمع له الصفتين ، فليست إحدهما ممتزجة بالأخرى لأنك لو قلت (هو يصفو) ولم تتعرض لذكر (الكدر) وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماءفى الصفاء بحاله وعلى حقيقته ، وليس كذلك فى الآية ، لأنك لو قلت (كالحمار يحمل أسفاراً) ولم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقروناً بحمله ، وأن يكون متعدياً إلى ما تعدى إليه الحمل لم يتحصل إليك المغزى منه .

وكذلك لو قلت : "هم كالحمار فى أنه يجهل الأسفار" ، ولم تشترط أن يكون حمله الأسفار مقروناً بجهله لها = لكان كذلك . وكذلك لو ذكرت الحمل والجهل مطلقين ، ولم تجعل لهما المفعول المخصوص الذى هو الأسفار ، فقلت "هو كالحمار فى أنه يحمل ويجهل" ، وقعت من التشبيه المقصود فى الآية بأبعد البُعد ، والنكتة أن التشبيه بالحمل للأسفار ، إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل ، ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه بشرط أن يقترن الكدر ، ولذلك لو قلت "يصفو ولا يكدر" لم تزد فى صميم التشبيه وحقيقته شيئاً ، وإنما استدمت الصفه كقولك "يصفو أبداً وعلى كل حال" [أسرار البلاغة ١٠١-١٠٣] .

٥- وجه الشبه المتعدد الحسى : كتشبيه نهر بآخر فى طوله واتساعه وعذوبة مائه ، وكتشبيه فاكهة بأخرى فى لونها وطعمها وحجمها .

٦- وجه الشبه المتعدد العقلى : كتشبيه رجل صالح بأبى بكر رضى الله عنه فى رسوخ الإيمان بالله ومحبة الرسول ﷺ والتفانى فى نصرة الإسلام . وكحدة النظر وكمال الحذر ، فى تشبيه طائر بالغراب .

٧- وجه الشبه المتعدد المختلف الذى بعضه حسى وبعضه عقلى ، كتشبيه إنسان بالشمس فى الظهور ورفعة الشأن ، وكتشبيه الجامع الأزهر بمسجد الحسين فى كثرة الزائرين وتعلق القلوب بهما .

-قسم البلاغيون التشبيه باعتبار افراد وجه الشبه وتركّبه إلى:

التشبيه التمثيلي وغير التمثيلي

للعلماء آراء في تحديد مفهوم التشبيه التمثيلي وغير التمثيلي وهذه الآراء تتمثل في :

أ- رأى الزمخشرى : يرى أنه لا فرق بين التشبيه والتمثيل ، فهما عنده مترادفان ، فكل تشبيه عنده تمثيل حتى لو كان وجه الشبه مفرداً ، قال في الكشاف : والمَثَلُ في أصل كلامهم بمعنى المِثْل وهو النظير ، يقال : مَثَل ومِثْل ومَثِيل ، كشَبَه وشِبْه وشَبِيه .

ويشيد الزمخشرى بالتمثيل فيقول : ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المُثَل والنظائر شأن ليس بالخفيّ في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيّل في سورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقّن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألدّ ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ ، ولأمر مّا أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله ، وفَشَتْ في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء ، قال تعالى ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ ٤٣ الروم - ومن سور الإنجيل سورة الأمثال (الكشاف ١/١٩٥) .

ب- رأى الإمام عبد القاهر الجرجاني :

يرى أن لا يكون الوجه المركب حسيا بأن كان عقليا أو اعتباريا وهمياً ، فهو يحصر التمثيل في العقلي غير الحقيقي - وهو ما كان من غير المعاني الغريزية في الإنسان كالذكاء والخوف - ولذلك فإن ما كان وجهه مفرداً عقلياً محتاجاً إلى التأويل مثل : كلامه كالعسل في الحلاوة ، يعدّ تمثيلاً ، خلافاً

لجمهور البلاغيين ، ولا يعد التمثيل عنده ما كان وجهه مركباً حسياً لأنه لا يحتاج إلى تأويل كما في قول الشاعر :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى　　كعنقود ملاحـــية حين نورا

فإنه تمثيل عند الجمهور لتركب وجه الشبه وليس تمثيلا عند عبد القاهر لعدم احتياج وجه الشبه فيه إلى تأويل ، وغير التمثيل عنده مالا يحتاج الوجه فيه إلى تأوُل ، سواء كان هذا الوجه مفرداً أو مركباً ، ويبين ذلك في أسرار البلاغة بقوله :

(اعلم أن الشيئين إذا شبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

أحدهما : أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج إلى تأول - وهذا غير التمثيليّ عنده - والآخر : أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول - وهذا هو التمثيليّ عنده- فمثال الأول : (غير التمثيلي) تشبيه الشئ بالشئ من جهة الصورة والشكل نحو أن يُشبه الشئ إذا استدار بالكرة ... وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد ... والوجه بالنهار ... أو جمع الصورة واللون معاً ، كتشبيه الثريا بعنقود الكرْم المنوّر ، وكذلك التشبيه من جهة الهيئة ، .. كتشبيه قامة الرجل بالرمح ... وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره ... وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل ، وتشبيه الناعم بالخزّ ، أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور ... وهكذا التشبيه من جهة العزيزة والطباع ، كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة والأخلاق كلها تدخل في العزيزة نحو السخاء والكرم واللؤم . فالشّبه في هذا كله بيّن لا يجرى فيه التأوّل .. وأيّ تأوّل يجرى في مشابهة الخد للورد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك الشجاعة في الرجل والأسد .

ومثال الثانى : (التشبيه التمثيلىّ) وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأوّل كقولك : هذه حجة كالشمس فى الظهور ... وهذا التشبيه لا يتم لك إلا بالتأوّل ، وذلك أن تقول : حقيقة ظهور الشمس أن لا يكون دونها حجاب ، مما يحول بين العين ورؤيتها ... ثم تقول : إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه ، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه ، ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذى يروم القلب إدراكه ، ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساده ، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجة على صحة ما ادُّعِي من الحكم قيل : "هذا ظاهر كالشمس" أى ليس ههنا مانع عن العلم به ، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ... فقد احتجت فى تحصيل الشّبه الذى أثبتّه بن الحجة والشمس إلى مثل هذا التأوّل ثم إن ما طريقه التأوّل يتفاوت تفاوتا شديدا ، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ... ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمّل ، ومنه ما يدقّ ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل رؤية ولطف فكرة ، وذلك كقول كعب الأشقَرىّ عند ما سأله الحجاج عن بنى المهلّب أيهم أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ... وقد مثل للتشبيه التمثيل بأمثلة كثيرة غاية فى الروعة منها : (اصبر على مضض الحسود ... الأبيات) وإن من أدبته فى الصبا ... الأبيات ، وغير ذلك بكثير .

ثم يقول : وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين ، فاعلم أن التشبيه عام ، والتمثيل أخصُّ منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا ، أسرار البلاغة ٩٠-٩٥ .

جـ- رأى السكاكى فى تشبيه التمثيل :

جعله السكاكى فيما إذا كان وجه الشبه منتزعا من متعدد وكان وصفا غير حقيقى ، أى غير متحقق حسا ولا عقلا ، بل كان اعتباريا وهميا ، فينحصر التشبيه التمثيلى عنده فى التشبيه الذى وجهه مركب اعتبارى وهمى "كحرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع الكدّ وذلك فى الآية الكريمة ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة﴾ الآية وما عدا ذلك فهو التشبيه غير التمثيلى ، وذلك بأن لا ينتزع وجه الشبه من متعدد ، أو كان منتزعا من متعدد لكنه وصف حقيقى أى حسى أو عقلى كما فى بيت بشار : كأن منار النفع فوق رؤسنا البيت .

يقول السكاكى فى مفتاح العلوم : "واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقى وكان منتزعا من عدة أمور خص باسم التمثيلى كالذى فى قوله (اصبر على مضض الحسود...) بأن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التى لا تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ليس إلا فى أمر متوهم له ، وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه فى المقاولة مع علمك بتطلّبه إيّاها عسى أن يتوصل بها إلى نفثة مصدور من قيامه إذْ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك ، وكالذى فى قوله (وإن من أدبته فى الصبا .... الأبيات) فإن تشبيه الأدب فى صباه بالعود المسقىّ أوان الغرس المونق بأوراقه ونضرته ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق ، مرضىّ السيرة ، حميد الفعال لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه ، وكمال استحسان حاله ، وأنه كما ترى أمر تصورى، لا صفة حقيقية ، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور .

وكالذى من قوله عز من قائل ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون﴾ البقرة ١٧ -

فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم فى الآية هو : رفعه الطمع إلى تسنّى مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب ، وأنه أمر توهمى منتزع من أمور جمّة (مفتاح العلوم ١٦٤-١٦٥- وانظر شروح التلخيص ٤٣٣/٣-٤٣٤) .

ء - رأى الخطيب وأكثر البلاغيين (الجمهور) :

- أن التشبيه التمثيلى ما كان وجهه منتزعا من شيئين أو عدة أشياء مستنبطة من الطرفين سواء كان حسياً أو عقلياً .

فالتشبيه التمثيلى بوجه مركب حسى كقول الشاعر يصف فارساً فى ميدان المعركة :

وأسفر تحت النقع حتى كأنــه صباح مضئ فى ظلمة الليل طالع

فالوجه : الهيئة المركبة من ظهور شئ مضئ يتحرك فى وسط شئ مظلم وهى صورة محسوسة مأخوذة من إشراق وجه الفارس والصبح ، ومن سواد الليل والغبار ، ومن حركة الفارس يقتحم الغبار وحركة الصبح عندما يغزو نوره ظلام الليل .

فقد شبه الفارس المشرق الوجه وهو يشق غبار المعركة بسرعة حركته بالصباح عندما يسفر ضوءه فيشق ظلام الليل .

ومثال التمثيلى الذى وجهه قد انتزع من الأمور العقلية فى الطرفين قول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحسود فــــإن صبرك قاتله

فالنـــار تـــأكل بعضهـــا إن لم تجد مــــا تأكله

فوجه الشبه سرعة فناء كل منهما لعدم إمداده بما يسبب بقاءه وحياته ،

وهذا معنى عقلى أخذ من حال الحسود عندما يهمله من حسده بالإعراض عنه حتى يموت غيظا ، وحال النار عندما لا تمد بالحطب فيأكل بعضها بعضا .

ومنه قول صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبتـــه فى الصبا — كالعود يسقى الماء فى غرسه

حتى تراه مورقـــا ناضرا — بعد الذى أبصرت من يبســه

فوجه الشبه هو التحول من حالة النقص إلى حالـة الكمـال بسبب الاعتنـاء بالعلاج فى الوقت المناسب الـذى يجدى فيـه ذلـك ، وهـذا الوجـه عقلـى قـد تركب من الطرفين حيث شبه الطفل وقد أعتنى به أهله فى الصغر فنشأ تنشـئة حسنة بالعود وقد اعتنى به غارسه فى وقت الغرس بالرى حتى صـار مورقـاً معجباً ، وأما التشبيه الغير تمثيلى فهو ما كان وجه الشبه فيه مفرداً حسياً كـان أو عقلياً .

هذا ، ويقع التمثيل فى بداية الكلام فيكون كالقياس الموضح للأمر ، ويكثر ذلك فى كتاب الله عز وجل كقوله تعالى ﴿مثل الذين ينفقون أموالهـم فـى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كـل سـنبلة مائـة حبـة والله يضاعف لـمـن يشـاء﴾[1] شـبه حـال مـن ينفـق فـى سـبيل الله رجـاء الثـواب فيجازى عليه بأضعاف ما قدم بحال الحبة التى أنبتت سبع سنابل فى كل سـنبلة مائة حبة ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من تقديم الشئ القليل والحصـول مـن ورائه على الشئ الكثير .

---

(١) سورة البقرة ٢٦١ .

وعكس ذلك قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا﴾(١) المشبه هنا حال من ينفق ماله للصدقة رياء وسمعة ، المشبه به حال حجر أملس عليه قشرة من التراب وعندما ينزل المطر يزيل هذا التراب فيظهر كون الحجر غير صالح للإنبات بعد أن ظن ذلك فيه ، ووجه الشبه حالة الشئ يبدو للناظر حسناً معجباً لكن نهايته فى غاية السوء .

كما يقع التمثيل فى أعقاب المعانى لإيضاحها وتقريرها فيكون كالدليل الذى تثبت به الدعوى ، ومن ذلك قول أبى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فقد شبه حال من يرجو الحصول على أمر لم يقدم ما يلزم لذلك من الاستعداد بحال السفينة إذا حاول محاول أن يجريها فى غير مكانها الطبيعى .

وجئ هنا بالتمثيل ليؤكد صدق دعواه من حيث إن من يطلب أمراً فلابد أن يسلك الطرق التى تحقق له مطلبه،وإلا كان كمن يحاول تسيير السفينة فى اليابس.

أسباب تأثير التمثيل فى النفس

ذكر البلاغيون للتشبيه والتمثيل فوائد جمة وبينوا سر تأثير التمثيل فى النفس ، وسنعرض هنا جانبا من تلك الأسباب والفوائد بإيجاز على النحو التالى :

أ- أن التمثيل ينقل النفس من الخفىّ إلى الجلىّ فتأنس النفس به وتستريح

---

(١) سورة البقرة ٢٦٤ .

إليه ، وذلك لأن معرفة الشئ عن طريق الحواس أفضل وأيسر من معرفتها عـن طريق العقل ، والعلم المستفاد من جهة الحواس أسبق إلى النفس مما يستفاد مـن طريق العقل ، وليس ببعيد عنا ما سبق بيانه فى قوله تعالى : ﴿والذين كفـروا أعمالهم كسراب﴾ الآية ، ولو ترك القرآن التعبير عن هذا بالتشبيه التمثيلـى وقال : مثلا: أعمالهم غير مفيدة لهم ، لذهب الأثر القـوى الـذى أحدثـه الآيـة فى النفس ، إذ جعل عدم جدوى أعمالهم فى صورة محسة كأننـا نراهـا ، وقـد كثر فى القرآن الكريـم تصويـر الأمـور المعنويـة بـالصورة الحسـية حتى يمكـن استيعابها والوقوف على المراد منها .

ومن هذا القبيل قول أبى تمام فى مدح سيف الدولة :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فـإن المسك بعض دم الغزال

فقد جعل الممدوح ممتازاً عن بنى جنسه ، وأنه ليس منهم بفضائله ومكارمه، وهذه دعوى مستغربة قد تخفـى علـى الكثير ، ولـذا لجأ إلى أسـلوب التمثيـل ليوضح هذا الأمر ويزيل عنه كل لبس فاختار له مثلا معروفاً وهو المسك الذى هو من الدم ، ومع أنه دم لكنه امتاز عـن جنسـه بخصيّصـة جعلتـه مغـايراً لهـذا الجنس حتى صار كأنه جنس آخر مستقل بنفسه[1] .

ووجه الشبه هنا تفوق الفرع على الأصل وامتيازه عنه .

ومن هذا القبيل أنك إذا أردت أن تصف رجلاً قوة العزيمة فقلت مثلاً :

إذا همَّ بالأمر لا يشغله عنه أى شاغل وصرف كل فكره لحـو هـذا الأمـر ،

(١) المزيد من الأمثلة انظر أسرار البلاغة ص .

فإن هذا القول لن يبلغ مبلغ التمثيل من التأثير الذى تجده فى قول الشاعر :

إذا هــمَّ ألقى بين عيْنَيْه عزمه ونكّب عن ذكْر العواقب جانبا

حيث أراك بهذا التمثيل عن هذا الرجل شاخصاً أمام عينيه كأنه شبح مرئى .

ويقول الخطيب فى هذا السبب : إنه يُحصّل للنفس الأنس باخراجها من خفّى إلى جلىّ ، كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة ، أو إخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته ، أو مما تعلمه إلى ما هي به أعلم ، كالانتقال من المعقول إلى المحسوس .

فإنك قد تعبر عن المعنى بعبارة تؤديه وتبالغ ، نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالقصر : يوم كأقصر ما يتصور ، فلا يجد له السامع من الأنس ما يجده لنحو قولهم : "أيام كأباهيم القطا" . وقول الشاعر :

ظَلِلْنا عند باب أبى نُعيْم بيوم مثل سالفــة الذباب

وقد مثل قصر اليوم فى المثال الأول بإبهام القطاه ، وهو أكبر أصابعها ، وهى طائر صغير معروف .

كما مثله فى البيت بسالفة الذباب – والسالفة صحفة العنق ناحية معلق القرط – ويضرب المثل بسالفة الذباب لما هو غاية فى القصر ، وقد شبه أيام السرور فى قصرها مرة بإبهام القطاة ومرة بسالفة الذباب فحسن الكلام واتضح المراد ولو لا مجيئه على طريق التشبيه لما كان له ذلك الحسن ، الإيضاح ٢/٢١٦ .

ب– أن التمثيل يجمع بين الأمرين المتباعدين المختلفين فيقرُب بينهما ويجعلهما فى مرأى العين كأنها شئ واحد فيكون معجباً رائعاً ، وذلك لأن تطَلُّب الشبه للشئ من غير جنسه أمر نادر ، فإذا استطاع الأديب أن يفعل

ذلك أثر ذلك فى النفس أيّما تأثير ، كقول الشاعر :

ولازوردية تزهو بزرقتهــــا   بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها   أوائل النار فى أطراف كبريت

فقد استطاع أن يجمع فى تشبيهه بين أمرين مختلفين هما زهر النبات الغضّ وأوائل النار فى آطراف الكبريت ، فجمع بين الزهر الندىّ واللهب المحُرق .

يقول عبد القاهر[1] لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غضّ يرق ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشفّ ، بلهب نار مستول عليه اليُبس ، وباد فيه الكلف ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشئ إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدرّه ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبها من المتلونات ، لم تجد له هذه الغرابة ، ولم ينل من الحسن هذا الحظ – وإذا ثبت أن تصوير الشبه بين المختلفين فى الجنس مما يحرّك قوى الاستحسان ، فإن التمثيل أخص شئ بهذا الشأن ، وهذا الصنيع صناعته التى هو الإمام فيها ....، وأمره فى ذلك أنك إذا قصدت ذكر ظرائفه وعدّ محاسنه فى هذا المعنى والبدع التى يخترعها بحذقه ، والتأليفات التى يصل إليها برفقه ، إزدحمت عليك ، وغمرَتْ جانبيْك ، فلم ندر أيها تذكر ، ولا عن أيها تعبّر .

وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين ، حتى يختصر لك بعدما بين المشرق والمغرب ... وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق الأخرس ... ويريك الحياة فى

---

(١) المزيد من الأمثلة أنظر أسرار البلاغة ص١٣٠ .

الجماد ... فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ، كما يقال في الممدوح هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشئ من جهة ماء ومن أخرى نارا كما يقال :

أنا نارٌ في مرتقى نظر الحا ... سد ماءٌ جارٍ مع الإخوان

فقد شبه نفسه بالنار في الإيلام وذلك في نظر أعدائه ، كما شبه نفسه مع أصدقائه بالماء الجارى في اللطف والصفاء ، فجمع بين متضادين الماء والنار .

جـ- أن التمثيل يوسع آفاق التعبير أمام الأدباء فيمكنهم أن يأخذوا من الشئ الواحد الذى تعددت صفاته مثالا لأشياء عديدة فيجعل شيئا واحدا مشبها به لعدة أشياء يكون واحد منها مشاركاً له في صفة من صفاته ، فمثلا إذا قدح الزَّنْد فتولدت منه النار يقال أوْرَى الزند ، وإذا لم تخرج منه النار يقال أصْلَد ، ويكن للأديب أن يأخذ من الحالين صورا عدة لتشبيهات متنوعة ، فيشبه الرجل الكريم الذى يجود بما عنده بالزَّنْد المُورِى ، وكذلك الذكىُّ فيقال: يتوقد ذهنه توقد الزَّنْد المورى ، وعلى العكس من ذلك في تشبيه البخيل والغبىّ ، فيقال : هو كالزند المصلد لا يجود بما عنده ، وعقله كالزند المصلد لا ينتج فكرة ... وهكذا .

ومن هذا القبيل أيضا الحالات المختلفة للقمر من الكمال والنقصان وازدياد ضوئه ومكثه في السماء وعكس ذلك ، ولذا فإن الأدباء قد فطنوا لهذه التشبيهات واستخدموها في الأغراض التى يريدون التعبير عنها .

ومن ذلك ما أورده أبو العلاء من تمثيل بحال القمر عندما أراد النصح بالتوسط في الأمور وترك الانهماك في طلب الزيادة من التَّنعُّم ، لأن التوسط سبيل الطمأنينة فقال :

وإن كنت تبغ العيش فابغ توسطا فعند التّنــاهى يقصر المتطاول
تُوفّى البدور النّقصَ وهى أهلّة ويدركها النقصان وهى كوامل

فقد استفاد مما فى القمر من صفة النقصان بعد الكمال فقاس على ذلك تشبيه حال الرجل يأمن من نقصان عيشه إذا توسط فيه ، ولا يأمن منه إذا بلغ فيه حدّ الكمال ، شبه ذلك بحال القمر فى أنه يأمن النقصان طالما لم يبلغ حد الكمال — ومن ذلك أيضاً ما صنعه الخوارزمى عندما رأى صديقه يكثر من زيارته إذا أيسر ، ويقطع زيارته عنه إذا أعسر حيث مثّل ذلك بحال القمر فقال:

أراك إذا أيسرت خيمتَ عندما مقيما وإن أعسرت زرت لمَا ما
فما أنت الا البدر إن قل ضوؤه أغبَّ وإن زاد الضياءُ أقامــا

فنظر إلى حال البدر من اختفائه معظم الليل عندما يقل ضوؤه وإقامته فى السماء أكثر الليل عند ازدياد ضوئه فاستخدم ذلك فى تمثيل حال صديقه ، والجامع كثرة الظهور فى حال الزيادة وقلته فى حالة النقص .

ومنه قول البحترى فى المدح :

دَانٍ على أيدى العُفَاة وشاسع عن كل نّدفى النّدَى وضريب
كالبدر أفرط فى العُلوّ وضوؤه للعُصبَة السَّارين جَــدُّ قريب

فاستخدم هنا بُعْد القمر مع قُرْب ضوئه ، فشبه به حال ممدوحه من كونه قريبا من الناس فى العطاء مع بعد مكانته عن نظرائه فى الكرم ... وهكذا .

٥- أن التشبيه التمثيلي يزيد المعانى التى يقع بعدها تأكيداً فى النفس ويُهيِّئ النفس لقبولها والتأثر بها ، فإن كان المعنى مدحا زاده — التمثيل بهاء ونُبْلاوأكْسبَه زيوعا وشهُرة ، ويجلب للمدوح أنسًا وطربا ، كما هو الحال فى بيتى البحترى السابقين .

وإذا كان المعنى الذى جاء بعده التمثيل ذمّا زاده إيجاعا لنفس المذموم وكان وقعة كوقع السهم كقو ابن لنكك .

في شجر السرْوْ منهم مثلٌ   له رُوَاءٌ ومالــــــه ثمــر

شبههم في عدم عطاياهم بشجر السرو معجب وليس فيه أى ثمر تؤكل .

وإذا كان المعنى حكمة زادها التمثيل وحفز على العمل بها كقول أبى تمام عندما وشى به واشٍ عند الوزير وظهرت براءته :

وإذا أراد الله نشـــــر فضيلة   طُويتْ أتاح لهـــا لسان حَسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يُعرف طيب عَرْف العود

شبه حال الفضيلة يتعرض لها الحسـود لسترها والتقليـل من شأنها لإيـذاء صاحبها فيكون ذلك سببا في ظهورها ، بحال العود طيب الرائحة مع النار فـي أنها تكشف ما في طبيعتـه مـن طيـبِ الرائحـة وتكـون سـببا فـي انتشـار تلـك الرائحة فيتطيب القريب والبعيد ، ووجه الشبه : مجـئ الخير مـن حيـث يتوقـع الضرر – وينقسم التشبيه باعتبار وجهه أيضاً إلى : مجمل ومفصّل .

أ– فالتشبيه المجمل :

هو مالم يذكر فيه وجه الشبه ، وسّمى مجملا لأنـه بحـذف وجـه الشـبه لا تتضـح دلالته على المقصود مباشرة بل لابد مـن تـأمل المخـاطب وتفكيره حتى يصـل إلى المراد من التشبيه اعتماداً على بعـض القرائـن ، فمثـلاً إذا قلنـا : محمـد بحـر ، فـإن المخاطب لابد أن يفكر في المقصود من هذا التشبيه هـل المـراد الكـرم ، أو غـزارة العلم ، ولا يمكنه أن يحدد أحد هذين الوجهين إلا بعد معرفة ما اشتهر بـه محمـد ، هل اشتهر بالكرم ؟ فيكون هو المراد ، أو اشتهر بغزاره العلم فيكون هو المراد .

وهذا التشـبيه المجمل منه ما هو ظاهر يفهمه كل أحد حتى العامة مثل محمـد

أسد ، فلا يخفى على أحد أن المراد هنا التشبيه فى الشجاعة لأنها أشهر أوصاف الأسد .

ومنه ما هو خفيّ لايدركه إلا الخاصة الذين لهم أذهان صحيحة يرتفعون بها عن درجة العوام فيدركون بها الدقائق والأسرار ، ومنه ذلك ما سبق من قول من وَصَف بنى المهلب للحجاج حينما سأله عنهم فقال : هم حماة السَّرْح نهارا ، وإذا أليلوا ففرسان البيات ، ثم قال له : فأيهم كان أنجد ؟ فقال : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، فالوصف المتضمن لوجه الشبه هنا : أنهم لتناسب أصولهم وفروعهم فى الشرف يمتنع تعين بعضهم فاضلاً وبعضهم أفضل منه ، كما أن الحلقة المفرغة يمتنع تعين بعضها طرفان وبعضها وسطاً .

ومن التشبيه المجمل أيضاً : ما لم يذكر فيه وصف المشبه ولا وصف المشُبه به، مثل محمد كالبدر ، فقد ذكر الطرفان هنا مجردان عن الوصف الدال على وجه الشبه .

ومنه : ما ذكر فيه وصف المشبه به وحده فأشعر هذا الوصف بوجه الشبه ، مثل : هم كالحلقة المفرغة ، فإن قوله : لا يدرى أين طرفاها مضمون وصف المشبه به وهو نفى دراية الطرفين الملتقِيَيْن ، وهذا يستلزم التناسب المانع من تمييز يصح معه التفاوت الذى هو وجه الشبه .

ومن ذلك أيضا قول زياد الأعجم :

وإنا وما تلقى لنـا إن هجوتنا لكا لبحر مهما تلق فى البحر يغرق

فإن قوله (مهما تلق فى البحر يغرق) وصف للبحر وهو دال على وجه الشبه وهو السعة ومنه : ما ذكر فيه وصف كلّ من المشبه والمشبه به - معاً كقول أبى تمام :

صَدَفْتُ عنه ولم تَصْدِفْ مواهبهُ عَنّى وعـاودَهُ ظَنّى فلم يخب

كالغيْث إن جئته وافـاكَ رَيّقهُ وإن ترحّلْتَ عنه لَجَّ فى الطلب

صدفتُ : أعرضت عنه تجريباً لشأنه ، أخطأ منى وقلة وفاء بحقه ، فلم تصدف أى لم تنقطع مواهبه وعطاياه ، وعاوده ظنى : يعنى عاودته بمواصلته طلبا لإحسانه ظنا أنى أجد فيه المراد وقد وجدته كذلك ، الغيث : المطر الواسع ، وافاك ريّقه : أى جاءك أوّل وأحسنه ، وريّق كل شئ أفضله ، وجعل أول المطر أحسنه للأمن من الفساد بدوامه ، وإن ترحّلت عنه : أى : إن فررت من الغيث ، لجّ أى بالغ فى الطلب وأدركك مع فرارك منه .

فالمشبه – وهو الممدوح – وُصف بأنه يعطى المعرض والمقبل ويفيض على الحالتين ، والمشبه به أيضاً وهو الغيث وصف بأنه يصيبك جنته أو ترحلت عنه، وإعطاء المعرض والمقبل – الذى هو وصف المشبه– يتضمن الوجه الذى هو الإفاضة فى الحالتين أيضاً .

ب– والتشبيه المفصل : هو ما ذكر فيه وجه الشبه ، كقول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحُسْن وفى بعد المنال

جـد فقد تنفجر الصّخـــرة بالماء الزلال

فقد شبه محبوبه بالبدر ، وذكر وجه الشبه فيه وهو أمران : أحدهما حسّى وهو الحسن ، والثانى : عقلى وهو بعده وعدم القدرة على الوصول إليه ، وأما البيت الثانى ففيه تشبيه ضمنى ، مفاده : أنه لا يستبعد أن يعطف عليه بالوصل كما لا يستبعد أن تنفجر الصخرة الصماء بالماء الزلال .

ومن ذلك أيضا قول أبى بكر الخالدى :

يا شبيه البدر حسنا وضيـــــاء ومنالا
وشـــبيه الغصن لينا وقوامـــا واعتدالا
أنت مثل الورد لونا ونسيمـــا وملالا

فقد ذكر وجه الشبه وتعدد فى كل تشبيه ثلاثة أوجه وهى واضحة .

– ومما يعد من التشبيه المفصل : ما ذكر فيه ما يستتبع وجه الشبه ، فيوضع فى مكان وجه الشبه أمر يستلزم ذلك الأمر وجه الشبه ، وكيفية ذكره فى مكانه : أن يؤتى به على طريقته من إدخال (فى) عليه ليخرج بذلك ذكر الوصف المشعر بالوجه لأحد الطرفين أو لكليهما كما تقدم فى المجمل ، فإن الوصف لا يذكر على طريقة وجه الشبه .

ومثال ذلك قولهم فى وصف الألفاظ الفصيحة التى لا تبعد دلالتها على معانيها هى كالعسل فى الحلاوة ، وكالماء فى السلاسة ، وكالنسيم فى الرقة ، فإن المذكور هنا من الأمور الثلاثة ليس وجه الشبه بذاته ، ولكنه وصف يستلزم وجه الشبه ففى الحلاوة المراد لازم الحلاوة وهو ميل الطبع واستحسانه للكلام ، وليس الحلاوة نفسها ، لأن الكلام ليس فيه حلاوة على الحقيقة ، كما أن المراد فى السلاسة والرقة لازمهما وهو إفادة النفس نشاطا ورَوْحا ، (انظر الايضاح ٢/٢٥٠ ، وشروح التلخيص ٣/٤٣٩-٤٤٢) .

تقسيم التشبيه إلى قريب مبتذل وبعيد غريب

يرجع البلاغيون هذا التقسيم أيضاً إلى حال وجه الشبه من حيث الوضوح أو الخفاء فجعلوا التشبيه بهذا الاعتبار على قسمين :

أ– التشبيه القريب :

وهو ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به من غير تعب ولا طول فكر لظهور وجه الشبه بينهما ، فإذا أردت أن تصف وجهاً بالحسن فلن تجد صعوبة فى استنباط نظير هذا الحسن فى القمر فتشبهه به ، وكذا إن أردت وصف رجل بالشجاعة فلن يتعثَّر عليك صورة الأسد فتشبِّهه به ، وهكذا كل

التشبيهات التى يسهل على المتكلم بها إدراك وجه الشبه به يجمع بينهما من غير طول نظر أو مشقة ، ولما كانت هذه الصور التشبيهية قريبة التناول سهلة الإدراك سُمِّى التشبيه فيها قريباً مبتذلاً لأنه يدركه العامىُّ والخاصىُّ .

ويرجع قرب وجه الشبه ووضوحه إلى كونه أمراً مُجملاً لا تفصيل فيه – كتسبيه ثوب بآخر فى البياض– ، أو يكون فيه شئ من التفصيل لكنه يتكرر على الحس بصورة مستمرة كالشمس والقمر وغير ذلك من الأمور المرئية كل يوم ، كتشبيه ثوب فيه نقوش بالأزهار ، فإن فيه شيئاً من التفصيل لكن سهل إدراكه لكون الثوب والأزهار تُرى كل يوم فيسهل إدراك وجه الشبه بينهما .

ب– التشبيه البعيد أو الخاص الغريب :

وهو ما لا ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به إلا بعد طول النظر والتفكير لدقة وجه الشبه وخفائه فى أول الأمر فالمتكلم إذا رأى صورة القمر بين السحاب يظهر مضيئاً ثم يحتجب وأراد أن يشبهه بصورة مماثلة له فلا بد له أن ينظر فى صفات القمر وتحديدها ليستوعب كل ما يتعلق بهذه الصورة من حيث الاستدارة والإشراق ، وحركة السحاب التى تُخفى القمر مرة وتُظهره مرة أخرى ، فيذهب ذهنه إلى وجه الحسناء التى تستدل قناعها على وجهها إذا خشيت من نظر المرتابين إليها وتكشف هذا القناع إذا أمنت النظر إليها فيتم له عقد المشابهة بين الاثنين بوجه شبه دقيق ، وهو الهيئة الحاصلة من الشكل المستدير المشرق يحجبه من وقت لآخر ستر قاتم اللون .

ويرجع بعد التشبيه وغرابته إلى واحد من الأمور الآتية :

١– كون وجه الشبه كثير التفاصيل كما فى تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل ، فالوجه الشكل واللون والحركة المستديمة المضطربة التى تحدث تموجاً وإشراقاً ، وهذا يحتاج إلى كثير من التفكير فى معرفته .

٢- كون المشبه نادر الحضور في الذهن إما لأنه لا وجود له لأنه من الأمور الوهمية كناب الغول ، أو من المركبات الخيالية كأعلام الياقوت على رماح من زبرجد كما مر ، أو كان وجوده نادراً لا يتكرر على الحسّ كثيراً فيحتاج في إدراكه إلى طول التأمل كقول الشاعر :

كأنما النار في تَلَهُّبها والفحم من فوقها يُغطّيها
زنجيّة شبّكت أصابعها من فوق نارنُجة لتُخفيها

والمشبه هنا هيئة النار المتلهبة التي يغطيها سواد الفحم فيبدو وإشراقها من خلال هذا السواد والمشبه به هيئة الزنجية الى تطبق يديها على نازنجة فيبدو لون النار النارنجه مصفراً من خلال ما بين أصابع تلك الزنجية ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع إشراف مع سواد على صورة مخصصة .

وكان هذا التشبيه خاصياً غريباً لكونه نادراً لا يتكرر على الحس كثيراً ، فقد يمضي الإنسان عمره ولا يرى زنجية تمسك بنارنجة على تلك الصورة المذكورة .

- أو كان من المركبات العقلية التي لا يدرك وجه الشبه منها إلا الخواص كما في قوله تعالى ﴿مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾[1] وندرة وجود المشبه به تؤدى إلى ندرة إدراك وجه الشبه لأنه يؤخذ من الطرفين فإذا خفى أحدهما خفى الوجه .

ومن ندرة حضور المشبه به في الذهن كونه بعيد الصلة بالمشبه كما في

---

(١) سورة الجمعة ٥ .

تشبيه زهر البنفسج بأوائل النار فى أطراف كبريت ، فلا يخطر ببالك صورة المشبه به عند رؤيتك البنفسج لاختلاف جنسهما ، فالمشبه زهر رطب ينفح بالطيب والمشبه به نار يابسة مُحرقة وشتّان بينهما .

يقول الإمام عبد القاهر عن التأليف بين المتباعدين : إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ... ومن المركوز فى الطبع أن الشئ إذا نيل بعد الطلب ... كان نيله أحلى ، وبالمزيّة أولى ، فكان موقعه فى النفس أجلّ وألطف ، ... وإن هذا الضرب من المعانى كالجوهر فى الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقّه عنه ، ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، فما كل أحد يفلح فى شق الصدفة ، ويكون فى ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له ... ثم يقول : وإنما الصنعة والحذق، والنظر الذى يلطف ويدقّ ، فى أن تجُمع أعناقُ المتنافرات والمتباينات فى ربقة ، وتعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشُبْكة .

ويبين شرط الجمع بين المتباعدين فيقول : واعلم إنى لست أقول لك إنك حين ألفْتَ الشئ ببعيد عنه فى الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنْتَ ، ولكن أقوله بعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس وفى ظاهر الأمر شبها صحيحاً معقولاً ، وتجد للملاءمة والتأليف السوىّ بينهما مذهباً وإليهما سبيلاً ... فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور ، فلا ، لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق ، يصنع فى صوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة ... ولم أرد بقوله : إن الحذق فى إيجاد الائتلاف بين المختلفات أنك تقدر أن تحدث هناك

مشابهة ليس لها أصل فى العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدقّ المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق فى المعانى بالغائص على الدر ... ألا ترى أن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين فى الجنس ثم لطفُ وحُسن ، لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلاّ لاتفاق كان ثابتاً بين المشبه والمشبه به من الجهة التى بها شبهت ، إلاّ أنه كان خفيّاً لا ينجلى إلا بعد التأنّق فى استحضار الصورة وتذكرها ،وعرض بعضها على بعض والتقاط النكتة المقصود منها ، وتجريدها من سائر ما يتصل بها ...

ويدخل فى هذا الموضع الحكاية المعروفة فى حديث عدىّ بن الرقاع ، قال جرير : أنشدنى عدىّ "عرف الديار توهما فاعتادها ... فلما بلغ إلى قوله : "تزجى أغنّ كأن إبرة روقه" = الأغن : ولد الظبية ، الروْق : القرن ، وإبرته : طرفه = رحمته وقلت قد رق ، ما عساه يقول وهو أعربى جلف جاف ؟ فلما قال :

"كأنه قلم أصاب من الدواة مدادها" استحالت الرحمة حسداً ، فهل كانت الرحمة فى الأولى ، والحسد فى الثانية ، إلاّ أنه لما رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له فى أول الفكر وبديهة الخاطر ، وفى القريب من الظن شبه، وحين أتم التشبيه وأداه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف .

ويتأتى التفصيل فى وجه الشبه : بأن يكون للمشبه وصفان أو أكثر يوجد ما يماثلها فى المشبه به ، بالإضافة إلى وصف زائد فى المشبه به فيَفْصِل المتكلم هذا الوصف الزائد ولا يُدخله فى وجه الشبه ليتم له دِقّة التشبيه كقول امرئ القيس :

حملت ردينيا كأن سنانه   سنا لهب لم يتصل بدخان

فالمراد بيان لمعان السيف وبريقه ، وتشبيهه باللهب بما فيه من دخان لا يحقق غرضة ، لذا فَصّل الدخان عن سنا اللهب ليحقق التشبيه على أكمل صورة .

أو يكون بين المشبه والمشبه به عدة أوصاف فيلاحظها المتكلم كلها ويعتبرها في التشبيه كما مر في تشبيه الثريا بعنقود "العنب ، من مراعاة الشكل والمقدار واللون والمسافة :

وبمراعاة الأوصاف بين الطرفين تتفاوت درجات التشبيه من حيث النُّدرة والغرابة والإبداع فكلما زادت جوانب التركيب والتفصيل في وجه الشبه كلما كان التشبيه أعلا درجة ومن ذلك قوله تعالى ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السّماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيَنَتْ وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغْن بالأمس﴾ ٢٤ سورة يونس .

فالآية عشر جمل ، وهي – وإن دخل بعضها في بعض حتى صارت كأنها جملة واحدة فهذا لا يمنع أن تشير إليها واحدة واحدة والوجه يؤخذ من هذه الجمل كلها فيحتاج إلى مزيد نظر في تتبّعها وفي كيفية أخذ الوجه منها فتكوّن هيئة تركيبية غاية في اللطافة والغرابة – حيث يراعى فيها أن مثل الحياة الدنيا شبهت بحال نبات كان له سبب هو المطر ، وأن ذلك النبات تم إلى حيث اختلط واشتبك من كل نوع مما ينفع الناس والأنعام ، فصار بحيث ينال منه المقصود ويُعجب ، وذلك بسبب تمام سببه العادى – وهو المطر– وبلوغ النهاية في نعيمة وكما له ، وأنه حينئذ تزيّنتْ به الأرض ، وظن أهلها أنهم يبلغون به المرام والمبتغى ، وأنهم بعد تمامه وإعجابه فاجأ أهله أمر الله فيه –

من ضرو غيره– فصار يابسا مضمحلاً ذاهباً كأن لم يعجب بالأمس .

فيؤخذ الهيئة من مجموع ما ذكر على هذا الترتيب ، وهو كون الشيء يبتدأ ضعيفاً بسبب عادىّ ، ثم لا يزال يزداد حتى يكون معجباً بحيث يغترُّ به من يراه ويرى تمكّن الانتفاع ثم يطمئن إليه ، وأنه بعد الاطمئنان إليه ، يصبه عاجلاً ما يقطعه ويجتثّه عن أصله بحيث يكون كالعدم ، فيفهم أن العاقل لا يغترّ بما كان مثل ذلك .

ويقول الزمخشرى : شبّهت حال الدنيا فى سرعة تقضّيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض فى جفافه وذهابه حطاما بعد ما التفّ وتكاثف وزيّن الأرض بخضرته . وقال عن قوله تعالى فى وصف الأرض (وازّينت) قال : كلام فصيح ، جعلت الأرض آخذه زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتسته وتزينت بغيرها من ألوان الزّيَن ، (ينظر الكشاف ٢/٢٣٣ ، وشرح التلخيص ٣/٤٥٦) .

ومما عدّه الخطيب القزوينى من أبلغ الاستقصاء فى التفصيل وعجيبه ، قول ابن المعتز :

وكأنّ وضوء الصبح يستعجلُ الدُّجَى   نُطيرّ غـرابا ذا قوادم جُون

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاء ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها ، من حيث يلى معظم الصبح وعموده لُمع نور يتخيّل منا فى العين كشكل قوادم بيض .

وتمام التدقيق فى هذا التشبيه : أن جعل ضوء الصبح – لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل – كأنه يحضر الدّجى ويستعجلها ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها ، ثم لمّا راعى ذلك فى التشبيه ابتداء راعاه آخراً ، حيث قال : نُطيرّ

غراباً ، ولم يقل : غرابا يطير ونحوه ؛ لأن الطائر إذا كان واقعاً فى مكان فأزعج وأطير منه ، أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وادعى له أن يستمرّ على الطيران حتى يصير إلى حيث لا تراه العيون ، بخلاف ما إذا طار عن اختيار ، فإنه حينئذ يجوز ألا يُسْرِع فى طيرانه وأن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأوّل .

وينبغى أن نفرق بين غرابة التشبيه وبعده والتعقيد الذى يخل بفصاحة الكلام ، فقد يُتوهَّم أن بُعد التشبيه إذا أحوج إلى طول النظر والفكر لإدراكه كان لوناً من التعقيد الذى يعرقل الفكر عن سرعة فهم المعنى من الكلام ويُخلّ بالفصاحة وهذا غير وارد .

ويرجع هذا التوهم إلى عدم التفرقة بين الأسباب التى تؤدى إلى التعقيد بنوعيه والتى عرفتها من قبل فتجعل الكلام مذموماً ، وبين عدم ظهور وجه الشبه من النظرة الأولى ، وهذا يرجع إلى دقة المعنى وغرابته لا لخلل فى ذات التشبيه ، ولذا فإنك تحتاج إلى طول النظر للوقوف على ما صنعه الشاعر فى التشبيه من تفصيل فى وجه الشبه ليتضح لك إلى أىّ حد راعى صفات الطرفين وَفصَّلها ؟ أما فى التعقيد فإنك تفكر فيه طويلاً لمعرفة ما يراد منه .

ونذكر هنا موازنات بين شعراء تناولوا معنى واحد فى التشبيه لمعرفة وجه الاختلاف بينهما من حيث الدقة فى التفصيل ، يقول عنترة فى وصف السيف:

يتـــابع لا يبتغى غيره   بأبيض كالقبس الملتهب

يقول إن هذا الرجل يتابع الجرى وراء عدوه بسيف يلمع كالشعلة من النار

ويقول امرؤ القيس :

حلمت رُدينياً كان سنانه   سنا لهب لم يتصل بدخان

فكل منهما نظر إلى عدة أمور فى الطرفين يتكوّن منهـا صـورة وجـه الشبـه من حيث اللون المخصوص وما فيه من البريق والاهـتزاز ، لكـن إمرأ القيـس كان أدقّ نظراً ، فعندما وجد فـى المشـبه بـه وصفـاً ينقـص بـه الشبـه – وهـو الدخان– نفاه ولم يعتبر فى التشبيه ، فأدى ذلك إلى زيادة حسن التشبيه ودقته بسبب ما روعى فيه من أمور تحقق وجه الشبه بكل دقة .

ويقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤسنـــا   وأسيا فنا ليل تهاوى كواكبه

ويقولَ المتنبى :

يزور الأعادى فى سماء عجاجة   أسنته فى جانبيها الكواكب

ويقول العتابى :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم   سقفا كواكبه البيض المباتير

لقد نظر الشعراء الثلاثة إلى صورة أرض المعركة وما فيها من أجسام مشرقة وسط سواد قاتم ، وقد التفت بشار إلى أمر زائد لم يعتبره الآخران وهو ما فى هذه الاجسام اللامعة مـن حركـات مختلفـة إلى جهـات متعـددة فـى غير نظام فاعتبر ذلك فى تشبيهه ودلّ على ذلك بكلمـة مُعبّرة أصـدق تعبـر عن هـذه الحركة المضطربة المتداخلة وهى قوله (تهاوى) فجاء تشبيهه بديعاً قد بلغ القمة فى الغرابة ، هذا .

ويُعد التشبيه البعيد عند علماء البيان من أقوى التشبيهات وأدقّها وأكثرهـا تأثيرا فى النفس لأنها تثير فى النفس الرغبة فى التعرف على دقائقهـا والبحث عن سر جمالها فإن وصلت إليه دخل عليها السرور .

وقد يمكن للأديب أن يتصرف فى التشـبيهات القريبـة بمـا يجعلهـا مـن قبيـل

التشبيهات الخاصة البعيدة كأن يثبت للمشبه به وصفا لا يتأتى وجوده فيه ثم ينى على سلبه عنه تفضيل المشبه عليه فى الوجه الذى عقدت عليه المشابهة كقول المتنبى :

لم تلق هذا الوجه شمسُ نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

يقول إن الشمس فقدت حياءها لأنها تجرأت على الظهور أمام الممدوح وهو ما سماه (شمس نهارنا) وهذا يفهم منه تشبيه الممدوح بالشمس (ضمنيا) وهو تشبيه قريب معروف ، ولكن الشاعر لما جعل الحياء من صفات الشمس ، وأنها فقدته عندما ظهرت أمام الممدوح ، زاد التشبيه غرابة ونقله من التشبيهات العادية إلى التشبيهات الخاصة النادرة أو يقيد المشبه به أو المشبه بقيد يتبين به فضل المشبه على المشبه به كقول الشاعر :

عزماته مثل النجوم ثواقبا لو لم يكن للثاقبات أفول

شبه عزائم الممدوح فى اختراقها المصاعب بالنجوم التى تثقب ظلام الليل ، وشرط لتمام هذا التشبيه ألا تغيب هذه النجوم ، فأفاد أن عزائم الممدوح أفضل ، لأنها نافذة الأثر وموجودة على الدوام ، بخلاف النجوم فإن لها وقتا معينا تظهر فيه ، وتشبيه العزيمة بالنجم قريب لكن الشاعر ذكر فى الكلام ما ينقله لدرجة التشبيهات البعيدة . ومما جاء على هذا النمط قول بديع الزمان :

يكاد يَحْكيك صَوْب الغيث مُنْسكبا لو كان طَلْق المحيّا يُمطِر الذّهبا

والبدر لو لم يَغِبْ والشمس لُو نَطَقتْ والأُسْدُ لو لم تُصَدْ والبحر لو عَذُبَا

فجمع للمدوح خمسة تشبيهات قريبة وحولها إلى بعيدة بما يشرطه فى كل تشبيه لتمام الشبه بين الطرفين ، فشبهه بالغيث بشرط أن يُمطر الغيثُ الزائرين بالذهب ويُسرُّ بلقائهم ، ثم شبهه بالبدر بشرط أن يكون دائم الاشراق ،

وشبهه بالشمس على شرط أن تؤنس بحديثها البليغ ، وشبهه بالأسد بشرط ألا تقوى عليه الأعداء كالممدوح وشبهه أخيراً بالبحر واشترط فيه أن يكون عذب المورد كالممدوح .

– وقد يتحول التشبيه من القرب إلى البعد بقلب التشبيه وادعاء أن الفرع (المشبه) صار أصلا فى التشبيه كقولك : الشمس كفلان فى الإشراق .

ومنه قول البحترى :

فى طلعة البدر شئ من محاسنها ۝ وللقضيب نصيب من تَثَنِّيها

والشاعر هنا لم يكتف بقلب التشبيه بل زاد فى المبالغة حيث جعل ما فى البدر من الحسن إنما هو شئ قليل من محاسنها هى وأن ما فى القضيب من ليونة إنما هو نصيب قليل مما احتواه قوامها .

– ويخرج التشبيه أيضاً من القرب إلى البعد بجمع الشاعر بين عدة تشبيهات تدور كلها فى نطاق واحد كما مر فى التشبيهات المتعددة . كقول امرئ القيس .

له أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نعامة ۝ وإرخاء سِرْحان وتقريب تَتْفُل

التشبيه التمليحى والتهكمى :

قد ينعقد الشبه بين الأمرين لما بينهما من تضاد كالكرم والبخل والشجاعة والجبن ، فيجعل هذا التضاد وجه شبه بين الطرفين بتنزيل التضاد بين الوصفين منزلة التناسب ويكون القصد من ذلك المفاكهة والتمليح ، كما إذا قلت لبخيل : أطعمنا اليوم خروفاً فأنت حاتم ، أو التهكم بالمخاطب والسخرية منه كما إذا قلت لجبان فى أرض المعركة تقدم فأنت الأسد .

وكقولك لأسود أنت القمر فى ليلة التمام .

أغراض التشبيه

يقصد بأغراض التشبيه : الفائدة التى يريد المتكلم أن يعطيها للسامع عندما يستخدم أسلوب التشبيه .

وهذه الأغراض منها ما تعود فائدته على المشبه ، ومنها ما تعود فائدته على المشبه به وسنوجز ذلك فيما يلى :

١- الأغراض العائدة على المشبه :

أ- بيان حال المشبه وتوضيح صفته ، ويجئ ذلك عندما تكون صفة المشبه غير معروفة للمخاطب ويريد المتكلم بيان هذه الصفة عن طريق التشبيه ، كقولك مسجد ابن طولون مثل مسجد الظاهر فى شكله وهندسته .

ب- بيان مقدار الصفة فى المشبه ، وذلك عندما تكون صفة المشبه معلومة والمجهول مقدارها من جهة القوة والضعف ، أو الزيادة والنقصان كقولك : سواد شعرها كسواد الليل .

فالتشبيه أفاد شدة سواد الشعر (مقداره) لا نفس السواد .

وكقولك : مداد مثل خافية الغراب ، فإن سواد الحبر معروف والتشبيه أفاد شدة سواده والخوَافى : ريشاتٌ إذا ضمَ الغراب جناحه خفيت ويضرب بها المثل فى شدة السواد لدى الغراب .

جـ- تأكيد وتقرير ثبوت الصفة للمشبه وذلك عندما يكون كل من الصفة والمقدار معلومين وأريد بالتشبيه تأكيد اتصاف المشبه بالصفة وتحقيقها له ، كتشبيه من لا يحصل من عمله على نتيجة بالقابض على الماء كقوله تعالى ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة﴾ فرفْعُ الجبل على رؤس اليهود لم تَجْربه

عادةً فوضحه بما جرت به العادة وهو المظنّة للتأكيد والتقرير .

ومنه قول الشاعر :

بَذَلَ الوعْدَ للأخِلاَّء سَمْحا ... وأبَى بعد ذاك بَذْل العَطاء

فَغَدَا كالْخِلاف يُورق للعين ... ويأبَى الإثْمارَ كل الإباء

فقد اشتمل البيت الأول على صفة المشبه كاملة ، وجاء بالتشبيه في البيت الثاني ليؤكدها ويقررها ، حيث شبههم في عدم الوفاء بما بذلوه من وعود سخيّة بشجر الخلاف فإن له منظر يغرى من يراه فيطمع في ثمره فلا يجد له ثمراً مع حُسْن منظره .

د- بيان إمكان وجود الصفة في المشبه وعدم استحالتها ويكون ذلك إذا كان المشبه من الأمور الغريبة التي يستبعد العقل حصولها ، ويجئ التشبيه لإزالة الشك في وجودها والاستدلال على صحتها كما في قول البحترى :

السابق (دان على أيدى العفاة .... الخ) فإن البيتين جاءا - ليستدل بهما على إمكان وجود الصفتين المتناقضتين بحسب الظاهر وهما الدنو والقرب في الممدوح، ومنه ما سبق أيضاً في قول المتنبي (فإن تفق الأنام .. البيت .. ويشترط البلاغيون لتحقيق هذه الأغراض الأربعة أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم وأقوى منه في جانب المشبه ، وأن يكون وجوده في المشبه به أكثر شهرة ومعرفة عند الناس كالشجاعة عندما تكون وجه الشبه بين الرجل الشجاع والأسد ، فإن هذه الصفة في الأسد (المشبه به) أقوى وأكمل عما في الرجل .

هـ- تزين المشبه وتجميله عند مدحه والترغيب فيه فيصوره المتكلم في صورة شئ أجمع الناس على حسنه وجماله كتشبيه وجه الزنجى بمقلة الظبى . ومنه قول الشاعر في وصف زنجية .

أكسبَها الحُبُّ أنهــا صُبِغَت   صِبْغة حبِّ القلوب والحَدق[1] .

وعلى عكس ذلك يأتى التشبيه لتقبيح المشبه عند إرادة ذمه والتنفير منه فيصور بصورة اشتهر قبحها عند الناس :

كقول الشاعر فى وصف مُغَنٍّ :

وأن شدا فصـــوته   صوت دجاج يمسك

فقد شوه صوته وسخر به : ومما جمع بين التزيين والتقبيح معا قول ابن الرومى

تقول هذا مجاج النحل تمدحه   وإن تعب قلت ذاقيئ الزنابير

و– القصد إلى استحسان المشبه واستطرافه بتصويره بصورة الشئ العجيب الذى يثير فى النفس الإعجاب به وذلك عندما يكون المشبه به مما يندر خطوره بالبال لعدم وجوده فى الواقع أو لبعده عن جنس المشبه ، وأمثلته ما مر من تشبيه الشقيق بأعلام الياقوت المنشورة على رماح الزبرجد ، وما شابه ذلك من التشبيهات التى يكون المشبه به فيها مركباً خيالياً ، وكذا التشبيهات التى يعد فيها المشبه به عن جنس المشبه كتشبيه الثريا بعنقود الكرم . وتشبيه زهر البنفسج بنار الكبريت فى قول ابن الرومى :

ولا زوردية تـــزهو بزرقتها   بين الرياض على حمر اليواقيت

فكأنها فوق قامات ضَعُفْن بها   أوائل النار فى أطراف كبريت

جاءت طرافة التشبيه من مجئ المشبه به فيها بعيداً غاية البعد عن جنس

(١) حَبَّةُ القلب : سُوَيْدَاؤُهُ ، أو مُهجَتُهُ ، أو هَنَةٌ سوداءُ فيه والحَدَقَةُ : سَوادُ العين والجمع : حَدَقٌ .

المشبه وهذا التباعد يجعل حضور أحدهما فى ذهن الشاعر عند حضور الآخر بعيداً ، فيحتاج إلى إطالة النظر ليجمع بين الطرفين المتباعدين ، ويذكر عبد القاهر أنه بالإضافة إلى التباعد فى الجنس فإن طرافته ترجع إلى أن ابن الرومى جمع بين نبات غضٌ ندىّ تشمه الأنوف وبين نار محرقة يابسة تخافها ، وعندما جمع بينهما بلغ نهاية المقدرة فى التأليف بين المتنافيين .

ومن هذا القبيل قول عدّى بن الرقاع وقد أبدع وأعجب :

تُزْجِــى أَغَنَّ كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فذكر لأعلا قرن الظبية شبيها بعيداً جداً عن جنسه لأنه لا يخطر ببال أحد عند رؤية قرن الظبية أقلام الكتاب ومداد المحبرة خاصة إذا كان بدوياً أمياً ، ولذلك حسده الشعراء على هذا البيت .

الأغراض التى تعود على المشبه به :

التشبيه الذى يعود الغرض منه إلى المشبه به هو التشبيه المقلوب ، وهو التشبيه الذى جعل فيه ما هو كامل فى وجه الشبه مُشَبهًا وما هو ناقص فى وجه الشبه مُشَبهًا به على عكس الأصل فى التشبيهات غير المقلوبة ، وهذا مبنى على الفرض والتخييل بجعل ما هو فرع فى وجه الشبه أصلاً فيه قصداً إلى المبالغة فى ثبوته له ، كقول محمد بن وهيب فى مدح المأمون :

وبدا الصباح كأن غُرَّته وجه الخليفة حين يُمتدح

حيث جعل ما هو أصل فى الضياء – وهو الصبح– مشبها ، وما هو فرع فيه – وهو وجه الخليفة – أصلاً ، فصَيَّرهُ مشبها به بقصد المبالغة فى رفع شأن الخليفة وتقرير مدحه ، وقد أضاف إلى التشبيه وصفه بكرم الخلق ومعرفة حق المادح وبشاشته عندما يستمع إليه .

ومن أبرز أغراض التشبيه المقلوب :

١ – شدة المبالغة فى اتصاف المشبه بوجه الشبه وإيهام أنه أقوى منه فى المشبه كما فى البيت السابق ، ومنه قوله تعالى :

﴿إنما البيع مثل الربا﴾[1] حيث جعلوا الربا أصلاً فى الحِلّ والإباحة ، وجعلوا البيع فرعا فيهما بقصد المبالغة فى إثبات حلّ الربا ، ومنه قوله تعالى ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾[2] فقد جعل الله المشركين لتماديهم فى عبادة الأصنام وتسميتهم لها آلهة بمنزلة من يعتقد أن من لا يخلق أحق بالعبادة ممن يخلق ، ولذلك جعل من لا يخلق أصلا مشبها به ومن يخلق فرعا عليه مشبها مبالغة فى تصوير جهلهم .

٢ – بيان شدة الحاجة إلى المشبه به وإظهار أنه مطلوب له وأكثر أهمية فى نظر المتكلم بالتشبيه من المُشبه ، كتشبيه الجائع القمر فى استدارته وإشراقه بالرغيف ، وتشبيه المسك فى طيب رائحته بالشّواء ، للتنبيه على شدة حاجته إلى الرغيف والشواء .

تقسيم التشبيه باعتبار الأداة :

ينقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين :

أ– التشبيه المؤكد . وهو ما حذفت منه أداة التشبيه ، ومنشأ التأكيد جعل المشبه به نفس المشبه بالصدق عليه ادعاء ، لأن المراد من حذف الأداة تركها

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٥ .

(٢) سورة النحل : ١٧ .

بالكلية ونسيانها بحيث لا تكون مقدرة فى نظم الكلام لأجل الاشعار بأن المشبه عين المشبه به ، بخلاف مالو كانت الأداة مقدرة فلا يفيد الاتحاد بين الطرفين ، فلا يكون التشبيه مؤكدا مع تقدير الأداة .

ومثال المؤكد قوله تعالى : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب﴾ سورة النمل ٨٨ - أى تذهب مرّ السحاب ، أى مثل ذهاب السحاب فحذف المثل الذى هو المراد بالأداة هنا ، وجعل الكلام كالخالى عن تقدير الأداة ليفيد أن مرّ الجبال هو نفس السحاب ، فأفاد التأكيد فى التشبيه حيث اعتبر فيه ما أوجب كون الملحق الذى هو الأضعف أصالة نفس الملحق به حتى صار صادقاً عليه .

ومن التشبيه المؤكد ما حذفت فيه الأداة وجعل فيه المشبه نفس المشبه به ادعاء حتى صار اطلاقه عليه كالأول فأضيف إليه ، بل هو أوكد ، لأن الإضافة فيه تجعل بيانية ، وهى تقتضى الاتحاد فى المفهوم والمصدوق معاً بخلاف مطلق الإطلاق ، وذلك نحو قول الشاعر :

والريح تَعْبثُ بالغصَون وقد جَرَى ذهب الأصيل على لُجَيْن الماء

والتشبيه المؤكد وقع فى الشطر الثانى متمثلاً فى "ذهب الأصيل" يعنى الأصيل الذى هو كالذهب ، والأصيل وقت ما بعد العصر إلى الغروب ويعدّ من الأوقات الطيبة كالسَّحَر ، وكذلك فى قوله : "لُجَيْن الماء" أى على ماء كاللجُين - وهى الفضة فى الصفاء والبياض فقد شبه شعاع الشمس الواقع على سطح الماء بالذهب فى الصفرة كما شبه هذا الماء فى صفائه وبياضه بالفضة ، وهذا من إضافة المشبه به إلى المشبه .

ب – التشبيه المرسل ، وهو ما ذكرت فيه أداة التشبيه ، وسمى مرسلاً لخلوه من التأكيد المستفاد من حذف الأداة المشعر بحسب الظاهر بأن المشبه عين المشبه به، وذلك كما مر من الأمثلة المذكورة الأداة ، وهى لا تخفى على أحد .

مراتب التشبيه :

يفرق البلاغيون بين التشبيهات وما يفيده كل منها من المبالغة على حسب ما يذكر من أركانه وما يحذف فإذا أردنا وصف رجل بالشجاعة فقلنا : هو كالأسد فى الشجاعة ، أفاد أصل المبالغة التى يفترق بها أسلوب التشبيه عن أسلوب الحقيقة .

وإذا قلنا : هو أسد فى الشجاعة ، بحذف الأداة ، أو هو كالأسد بحذف وجه الشبه ، زادت المبالغة قوة عن المثال الأول .

وإذا قلنا : هو أسد بحذف الأداة والوجه ازدادت تلك المبالغة حتى يُخيَّل أن الرجل أسد على الحقيقة ، حيث جعل الأسد خبراً عن هذا الرجل ، ويسمى بعض البلاغيين هذا النوع بالتشبيه البليغ .

والأولى أن لا يختص مثل ذلك بهذه التسمية ، بل يقال : أن كل تشبيه ناسب المقام وأدى الغرض المطلوب منه مع ارتقائه عن التشبيهات العامية فهو التشبيه البليغ سواء ذكرت كل أطرافه أو حذف بعضها ، لأن قصر التشبيه البليغ على محذوف الوجه والأداة يؤدى إلى جعل كثير من تشبيهات القرآن الكريم خارجه عن هذا الباب ، وهذا أمر لا يتصور صدوره عن عاقل ، فقد بلغت تلك التشبيهات الذروة من البلاغة والاعجاز وناسب كل منها مقامة حتى ولو ذكرت أركانه الأربعة ، وهنا يقول الدسوقى مبيناً مفهوم التشبيه البليغ : والحاصل أن بلاغة التشبيه منظور فيها إلى كونه بعيدا غريبا ، سواء كان وجه الشبه فيه تركب من أمور كثيرة أولا ، وسواء ذكرت الأداة أو

حذفت ، وحينئذ فإطلاق البليغ على التشبيه الذى حذفت أداته إطلاقا شائعا طريقة لبعضهم ، وإلا فهو يسمى مؤكداً ، ثم إن المراد بالبليغ هنا - يعنى فى المركب- الواصل لدرجة القبول فهو من البلوغ بمعنى الوصول ، أو اللطيف الحسن ، مأخوذ من البلاغة بمعنى الحسن واللطف مجازا لا من البلاغة المصطلح عليها ، لأنه إنما يوصف بها الكلام والمتكلم لا التشبيه ، ولا يقال : يصح إرادة البلاغة المصطلح عليها ، باعتبار الكلام الذى فيه التشبيه ؟ لأنا نقول : بلاغته حينئذ باعتبار المطابقة لمقتضى الحال ، ولاوجه لاختصاص التشبيه الغريب بالبليغ حينئذ ، إذ ربما كان القريب المبتذل مطابقا لمقتضى الحال ، كما إذا كان الخطاب مع شخص يقتضى حاله تشبيها مبتدلا لبلادته ، وسوء فهمه ، فلا يكون الغريب بليغاً ، (حاشية الدسوقى ٣/٤٥٧) .

ولا يفوت العلماء عند حديثهم عن التشبيه أن ينبهوا إلى أن من التشبيهات ما هو حسن مقبول ، ومنها ما هو قبيح مردود ناظرين فى ذلك إلى الغرض من التشبيه .

فالحسن المقبول :

هو ما كان مؤديا للغرض محققا للفائدة التى ضرب التشبيه من أجلها ، وهو توضيح المعنى المقصود وبيانه كما فى تشبيه الأمر الخفى بالأمر الظاهر المعروف، كتشبيه الكلام بالعسل ،والجهل بالظلام .

وكما فى إرادة المبالغة فى الصفة وتفخيمها عند تشبيه الشئ بما هو أعظم منه وأضخم مثل تشبيه الرجل الضخم بالفيل ، والسفن بالجبال ، قال تعالى ﴿ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام﴾[1] .

---

(١) سورة الشورى ٣٢ .

كما يجئ التشبيه لازالة الشك فى صحة الصفة وتقرير وجودها كتشبيه الرجل القريب من الناس بعطاياه والبعيد عنهم بمنزلته وعلُوّ مكانته – بالشمس، بقرب شعاعها وضوئها فينتفع الناس به وتبعد عنهم بجسمها .

هذا ، ومما يجعل التشبيه مقبولا أن يراعى لكل حالة من أغراض التشبيه ما يناسبها فى المشبه به .

فإذا كان الغرض بيان حال المشبه ، فإن هذا الغرض لا يتحقق إلا إذا كان وجه الشبه فى المشبه به أكثر وضوحا منه فى المشبه .

وإذا كان الغرض بيان المقدار ، فيجب أن يكون مع وضوحه على درجة واحدة من حيث الحجم والمقدار .

وإذا كان الغرض المبالغة فى إلحاق الناقص بالكامل فيجب أن يكون المشبه به أعظم حجماً أو أجمل شكلاً منه فى المشبه .

وإذا كان الغرض بيان الإمكان فيجب أن يكون وجه الشبه مُسَلَّماً حصوله فى المشبه به مُعْتَرفاً به من المخاطب .

أما فى التشبيه الذى يعود الغرض منه على المشبه بـه فيكفى أن توجد صفتى الوضوح والكمال فى وجه الشبه على طريق التخييل والادعاء[1] وقد مرت الأمثلة ومما قيل فى تشبيه الورد فبلغ الغاية فى الحسن والقبول قول محمد بن عبد الله بن ظاهر :

أما ترى شجرات الورد مُظهِرة ... لنا بدائع قدْر رُكّبْن فى قضب
كأنهن يواقيت يحيط بها ... زبرجد وسطه شذر من الذهب
كأنه حين يبدو من مطالعه ... صَبٌّ يُقبّل حِبّا غير مرتقب

---

(١) انظر الإفصاح للشيخ الحجارى رحمه الله .

وأما التشبيه القبيح المردود :

فهو ما أخل بالغرض المقصود منه ، كتشبيه قلعة القاهرة في شماختها وضخامة بنائها بخباء كبير مضروب فوق ربوة عالية ، وكتشبيه الرجل بالكلب في الوفاء ، وبالبغل في الصبر والتحمل .

ويذكر العلماء في كتبهم كثيراً من التشبيهات المعيبة لعدم مناسبتها للمقام أو عدم ملاءمتها للمعنى المضروب له التشبيه ومن ذلك قول كثير :

فما روضة بالحـــزن طيبة الثرى　يمج النّدَى جثجاثها وعـــرارها
بمنخرق من بطن وَادٍ كأنمـــا　تلاقت عطـــــــارة ونجارها
بأطيب من أردان أن عزة موهنا　وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

وقد عابته امرأة فقالت لكثير : فض الله فاك ، أرأيت لو أن زنجية بَخّرتْ أرادانها بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس.

ألم تر أني كلما جئت طارقا　وجدت بها طيبا وإن لم تُطيّب

الجثجاث ريحان طيبة الريح برية من أحرار البقل والعرار : البهار البرّى وهو حسن الصفرة طيب الريح .

وموهنا : يعني بعد هدى من الليل ، والمندل العود[1] .

وسبب عيبها : أن جعل طيبها ناشئا عن تبخرها بالعود والمرأة توصف بطيب الرائحة حتى ولم تمس الطيب أصلا .

وقال أبو هلال العسكرى[2] والتشبيه يقبح إذا كان على خلاف ما وصفناه

(١) الكامل ١١٥/٣ وما بعدها .
(٢) الصناعة ٢٤٦ وما بعدها طبع صبيح .

فى أول الباب من إخراج الظاهر فيه إلى الخافى ، والمكشوف إلى المستور ، والكبير إلى الصغير ، ومن ذلك قول ساعدة بن جرية :

كساها رطيب الريش فاعتدلت لها   قداح كأعناق الظباء الفوارق

شبه القداح بأعناق الظباء وليس بينهما شبه، ولو وصفها بالدقة لكان أولى.

ومن ردئ التشبيه قول ابن المعتز :

أرى ليلا من الشعر   على شمس من الناس

فجمع بين الليل والناس فوقع بارداً ، ويقصد تشبيه الشعر فى سواده بالليل وشبه صاحبة الشعر بالشمس .

– كما عاب النقاد فى التشبيه أيضاً إلى جانب ما سبق اشتماله على ألفاظ لا تليق بلغة الأدب وعدم ملاءمة التشبيه لمقامه .

يقول ابن أبى عصرون : ولكم عيب على فحول الشعراء أشياء وانتقد عليهم بسببها ، إذ لا يحسن مثل ذلك فى الأدب ، وكان العدول عنه إلى ما يضارعه فى الشكل أولى وأحرى ، إذ اجتناب ما يقرع الأسماع ، أو ينفّر الطباع ، أو يورث النظم بشاعة واجب عند أهل هذا الفن ، ومن ذلك ما عيب على ابن قلاقس فى تشبيه الصبح بالسقط فى قوله :

أما ترى الصبح يخفى فى دجنته   كأنما هو سقط بين أحشائه

وعيب على الحاجزى قوله :

وما اخضر ذلك الخدّ نبتا وإنما   لكثرة ما شئت عليه مرائر

فقالوا : جعل خد محبوبة مسلخا .

وبعضهم لم يكتف بشق المرائر على خد محبوبه حتى أضاف إلى ذلك سفك الدم عليهم فى قوله :

وما أحمر ذاك الخد واخضر غوقه   عذارك إلا من دم مرّ مرائر

فهذه الأبيات وأمثالها – وإن كان فيها تشبيها مصيبا – فهى بشعى الألفاظ لاشتمالها على ذكر الدماء ، وشق المرائر على خدود الأحباب فى هذا البيت ، وذكر السقط فى البيت المتقدم ، ثم قال :

وهذه الأشياء وأمثالها تعافها النفس ، وتنفر من ذكرها الأمزجة ، فمن الواجب مراعاة جميع هذه الأشياء الوضيعة ، والتباعد عن مثل هذه الكلمات الشنيعة .

فإذا روعى ذلك كان التشبيه بليغا حسنا مقبولا[1] .

وهذا متفق مع ما ذكره كثير من النقاد من أن إصابة التشبيه فقط ليست هى كل ما يراد من الكلام ، يقول الجاحظ : (وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وجودة السبك)[2] .

ويقول بشر بن المعتمر : (ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما)[3] – ويقول عبد القاهر : (واعلم أن الداء الدوى الذى أعيا أمره فى هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ)[4] .

الحقيقة والمجاز اللغويان

الحقيقة : هى الكلمة المستعملة فى المعنى الذى وضعت[5] له فى الاصطلاح

---

(١) رشف النبيه من ثغر التشبيه ٢٣٥-٢٣٧ .

(٢) الحيوان ١٣١/٢ .

(٣) النقد الأدبى الحديث ٣٦٩ .

(٤) دلائل الإعجاز ١٩٤ .

(٥) معنى الوضع : تعيين اللفظ للدلالة على معناه بنفسه لا بقرينة فدلالة اللفظ على معناه المجازى ليست =

الذى جرى به التخاطب ، كاستعمال لفظ الفرس والأسد فى معانيها الموضوعة لها فى عرف اللغة ، واستعمال كلمة الصلاة فى معناها المعروف فى عرف الشرع ، واستعمال لفظ الخبر فى المعنى المصطلح عليه فى علم النحو ، واستعمال لفظ الدابة بمعناه المعروف لدى العامة كالحمار ، ولهذا فإن الحقيقة تنقسم إلى : لغوية ، وشرعية ، وعرفية خاصة ، وعرفية عامة .

وأما المجاز فإنه : قد يكون اللفظ المتجوز به مفردا كاستعمال اليد فى النعمة ، وقد يكون مركبا كقولك للمتردد فى الأمر : إنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى .

المجاز المفرد :

هو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له فى اصطلاح وقع به التخاطب على وجه يصح مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى .

وخرج من المجاز بقوله "مستعملة" الكلمة قبل الاستعمال فإنها لا توصف بالحقيقة ولا بالمجاز ، ودخل فيه بقوله فى "غيرما وضعت له فى اصطلاح به التخاطب " لفظ الصلاة إذا استعملها عالم الشرع فى الدعاء ، لأنه استعملها فى غير ما وضعت له فى اصطلاحه هو مع أنها بهذا الاستعمال تكون مستعملة فيما وضعت له فى اللغة ، لأن المعتبر هو اصطلاح التخاطب ، وقوله

وضعية لاحتياجه إلى القرينة المانعة من إرادة المعنى الوضعى .

ودلالة المشترك على واحد من معنييه الموضوعين له وضعية ، لأنه إذا احتاج إلى قرينة تعين أحد المعنيين فهى ليست كقرينة المجاز التى تعين معنى لم يوضع له اللفظ وهو المعنى المجازى ، بل تعين أحد المعنيين الموضوع لهما اللفظ لغة .

على "وجه يصح" ، يراد به ضرورة وجود العلاقة التى تربط المعنى المجازى والمعنى الذى وضع له اللفظ ، وبذلك يخرج الغلط من التعريف كقولك : خذ هذا الفرس وأنت تعطيه كتابا ، لان الغلط لا تلاحظ معه علاقة تصحح الاستعمال فى غير المعنى الذى وضع له اللفظ ، وقوله "مع قرينة مانعة" يخرج الكناية لأن قرينتها لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقى مع المعنى الكنائى .

والمجاز فى الأصل : مصدر ميمى بوزن مَفْعَل من جاز المكان يجوزه ، إذا تعداه ، سميت به الكلمة التى جازت مكانها الأصلى وتعدته إلى غيره .

– وينقسم المجاز المفرد باعتبار المصطلح الذى كان مجازا بحسبه إلى أربعة أقسام :

١– مجاز لغوى : وهو ما استعمل فى غير ما وضع له فى عرف اللغة كاستعمال أسد فى الرجل الشجاع . فإن هذه الكلمة فى اللغة تدل على الحيوان المفترس .

٢– مجاز شرعى وهو ما استعمل فى غير ما وضع له فى عرف الشرع كاستعمال الصلاة فى الدعاء لأنها فى عرف الشرع أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ، فاستعمالها فى الدعاء هنا مجاز لكونها مستعملة فى غير ما وضعت له شرعاً .

٣– مجاز عرفى خاص : وهو ما استعمل فى غير ما وضع له عند صاحب هذا العرف كلفظ الكناية إذا استعملها عالم البلاغة فى معنى الستر والخفاء لأنها عند البلاغيين فى مصطلحهم له مفهوم خاص غير معنى الستر .

٤– مجاز عرفى عام : وهو ما استعمل فى غير ما وضع له بالنسبة إلى العرف العام كاستعمال الدابة فى الفيل .

أقسام المجاز باعتبار العلاقة :

ينقسم المجاز بهذا الاعتبار إلى :

أ- مجاز مرسل وهو ما كانت علاقته غير المشابهة كاستعمال المطر فى النبات .

ب- استعارة وهو ما كانت علاقته تشبيه المعنى المراد بالمعنى الذى وضع له اللفظ كإطلاق الشمس على رفيع الشأن .

المجاز المرسل وعلاقاته :

المجاز المرسل : هو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له لعلاقة غير الشابهة، ويقصد بعلاقة غير المشابهة أن يكون بين المعنى المنتقل عنه والمعنى المنتقل إليه نوع من التلاؤم والارتباط يجمع بينهما فى الذهن ويبيح استعمال أحدهما فى موضع الآخر ومن هذه العلاقات :

علاقة السببية :

فيها يسمى الشئ باسم سببه ، كقولك عظمت يد محمد عندى ، فقد استعملت اليد بمعنى العطاء فى النعمة لان اليد وسيلة لايصال العطاء للمحتاج، ويشترط فى هذا أن يكون فى الكلام ما يدل على صاحب النعمة ، أما إذا خلا الكلام مما يدل على المولى للنعمة فإنه لا يسمى مجازاً مرسلاً لفقده القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، لأنك إذا قلت :

كثرت الأيادى عندنا ، ذهب الذهن إلى المعنى الحقيقى ، وكذا لو قلت اتسعت اليد فى البلد ، ومن علاقة السببية أيضا استعمال الإصبع فى الأثر الدقيق من رسوم هندسية ونقوش بديعة بديعة يكون للأصابع فضل فى إبرازها وصنعها ، كقولك : إصبع فلان ظاهرة فى هذا الخط ، والمراد : حسن التنسيق، ودقة الصنعة التى نشأت من عمل الأصابع .

ويشترط في هذا الاستعمال أن يكون للإصبع أثر جميل ، ولذلك لا تقول رأيت أصابع الدار بمعنى آثارها ، ومنه رعينا الغيث ، يريدون النبات الناشئ عن المطر ، ومنه قوله تعالى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[1] فاستعمل لفظ السيئة الثاني في العقوبة لأن العقوبة نشأت بسببها ومن ذلك أيضا قوله تعالى ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ سورة البقرة ١٩٤ – سُمّي جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء ، إذ المراد فمن اعتدى عليكم فجازوه على اعتدائه بالقصاص .

ومنه قوله تعالى ﴿ونبلوأخباركم﴾ سورة محمد ٣١ – فالمجاز واقع في نبلو لأنه مستعمل بمعنى العرفان المسبب عن الابتلاء ، إذ المراد والله أعلم ويعرف أخباركم .

وعلى ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألاّ لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجهل الأول مراد به الطيش والاعتداء ، ونجهل مجاز عن رد الاعتداء لكنه عبر عن رد الاعتداء بالجهل لكون رد الاعتداء مسبباً عن جهلهمُ واعتدائهم ..

ومنه قوله تعالى ﴿ومكروا ومكر الله﴾ المكر بالنسبه لله تعالى مجاز عن عقوبة هؤلاء على مكرهم لان مكرهم سبب في العقوبة وقيل المكر في جانب الله حقيقة حيث يستدرجهم بنعمه مع ما اعدّ لهم من نقمه .

---

(١) سورة الشورى ٤٠ .

علاقة المسببية :

وفيها يسمى السبب باسم المسبب كقولهم : أمطرت السماء نباتاً : فسمّى المطر باسم ما تسبب عنه وهو النبات : وقوله تعالى ﴿وينزل لكم من السماء رزقا﴾[1] فقد أطلق الرزق على المطر النازل من السماء لأنه سبب عنه .

ومنه قوله الشاعر :

أقبل فى المستن من ربابه   أسنمة الآبال فى سحابه

والمعنى أن المطر أقبل من الرباب –أى السحاب الأبيض– وجرى فى طريقه المستن – يعنى الواضح– فسقى الأرض فأنبتت النبات الذى رعته الإبل غنمى أسنمتها وسمنت ، والشاعر هنا جعل أسنمة الإبل فى السحاب وهى لست فيه على الحقيقة وإنما فيه الماء الذى تنمو عليه الأسمنة (وهذا هو القرينة) فأطلق أسم المسبب– وهو الأسمنة – وأراد السبب وهو الماء الذى ينبت طعام الإبل .

ويدخل تحت هذه العلاقة التعبير بالفعل عن إرادة هذا الفعل كقوله تعالى ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ با لله﴾[2] أطلق القراءة على إرادة القراءة لأن القراءة مسببه عنها . ومن ذلك قوله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا﴾ فسمى ما يأكلونه ناراً لأنها مسببه عن أكلهم .

(١) سورة غافر ١٣ .

(٢) سورة النحل ٩٨ .

علاقة الجزئية :

وفيها يسمى الكل باسم جزئه ، كإطلاق العين على الجاسوس لأنها أهم عضو فى التجسس ، وتسمية العبد بالرقبة فى قوله تعالى : ﴿فتحرير رقبة﴾[1] أطلق الرقبة على العبد كله لأنها الجزء الذى كان موضع السلاسل بالنسبة للأرقاء .

وإطلاق القيام الذى هو جزء من الصلاة على الصلاة فى قوله تعالى : ﴿قم الليل﴾[2] أى صل ، ويشترط فى صحة هذه العلاقة : أن يكون الجزء الذى يراد به الكل مما جرى العرف على استعماله فى الكل ، أو كان له مزيد اختصاص بالمعنى الذى يراد به الكل ، فإذا قلت : أعتقت ذراعاً ، وأنت تقصد عبدا لا يصح ، لأن الذراع ليس له اختصاص وثيق فى العتق ، بخلاف الرقبة لأنها محل السلاسل التى يسلسل فيها العبيد .

علاقة الكلية :

وفيها يسمى الجزء باسم الكل كقوله تعالى ﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم﴾[3] فقد أطلق الإصبع على جزء منه وهو الأنملة لأنها التى يمكن إدخالها فى الأذن ، وكقولك قطعت السارق وأنت تريد يده .

---

(١) سورة النساء ٩٣ .

(٢) سورة المزمل ٢ .

(٣) سورة البقرة ١٩ .

علاقة اعتبار ما كان :

وفيها يسمى الشئ باسم ما كان عليه فى الماضى ، كقوله تعالى ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾[1] فاطلق اليتامى وهم من فقدوا آباءهم قبل البلوغ على الكبار باعتبار ما كانوا عليه قبل البلوغ .

ومنه قوله تعالى ﴿إنه من يأت ربه مجرما﴾[2] سماهم مجرمين فى الآخرة باعتبار ما كانوا عليه فى الدنيا .

علاقة ما سيكون عليه الشئ مستقبلا :

وفيها يسمى الشئ باسم ما يكون عليه من صفة فى المستقبل كقوله تعالى : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[3] سماهم ميتين وهم أحياء لأنهم صائرون إلى الموت مستقبلا ، وقوله تعالى ﴿إنى أرانى أعصر خمرا﴾[4] سمى العنب خمرا لأنه سيصير كذلك فى المستقبل بعد تركه مدة من الزمن .

علاقة المحلية :

وفيها يسمى الشئ الحالّ فى مكان باسم محله ، كقوله تعالى : ﴿فليدع نادية﴾[5] وقوله ﴿وأسأل القرية﴾[6] والمراد أهل النادى وأهل القرية .

---

(١) سورة النساء ٢ .

(٢) سورة طه ٧٤ .

(٣) سورة الزمر ٣٠ .

(٤) سورة يوسف ٣٦ .

(٥) سورة العلق ١٧ .

(٦) سورة يوسف ٨٣ .

علاقة الحالية :

وفيها يسمى المحل باسم الشئ الذى يحل فيه كقوله تعالى ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله﴾[1] أى فى الجنة ، فسمى الجنة وهى محل الرحمة باسم الرحمة وهي حالة فيها .

علاقة الآلية :

وفيها يسمى الشئ باسم الآلة التى يحصل بها كقوله تعالى ﴿واجعل لى لسان صدق فى الآخرين﴾[2] أى ذكراً جميلاً وثناء حسناً ، ومنه قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[3] أى بلغة قومه .

المجاز المفيد والخالى عن الفائدة :

قسم السكاكى المجاز المرسل إلى خال عن الفائدة ومفيد ، وجعل الخالى عن الفائدة ما استعمل فى أعم مما هو موضوع له ، (كالمَرْسِنِ) فى قول الحجّاج :

وفَاحِماً وَمَرْسِناً مُسَرَّجاً

فإنه مستعمل فى الأنف لا بقيد كونه لَمَرْسون مع كونه موضوعاً له بهذا القيد لا مطلقاً ، وكالمشفر فى نحو قولنا "فلان" غليظ المشافِر" إذا قامت قرينة على أنَّ المُراد هو الشَّفَة لا غير .

وقال : سُمِّيَ هذا الضرب غير مفيد لقيامه مقام أحد المترادفين من نحو

---

(١) سورة آل عمران ١٠٧ .

(٢) سورة الشعراء ٨٤ .

(٣) سورة إبراهيم ٤ .

"ليث ،وأسد" ، و"حَبَسَ ، ومَنَعَ" عند المصير إلى المراد منه .

وأراد بالمفيد ما عدا الخالي عن الفائدة والاستعارة كما مر .

والشيخ عبد القاهر رحمه الله جعل الخالي عن الفائدة ما استُعْمِل في شئ بقيد ، مع كونه موضوعا لذلك الشئ بقيد آخر ، من غير ، مصرحاً بأن الشفة والأنف موضوعان للعضوين المخصوصين من الإنسان .

فإن قصُدَ التشبيه صار اللفظ استعارة ،كقولهم في مواضع الذم : "غليظ المِشْفَر" فإنه بمنزلة أن يقال : الحال أن شفته في الغلظ مِشْفَر البعير" وعليه قول الفرزدق :

فلو كُنْتَ ضَبِّيًا عرفتَ قَرابَتِي   ولكن زنجياً غليظ المشافِرِ

أى : ولكنك زنجيٌّ كأنه جَمَل لا يهتدي لشرفي .

وكذا قول الحطيئة يخاطب الزبرقان :

قَرَوْا جَارَكَ العَيْحَانَ لَمَّا جَفَوْتَهُ   وقَلَّصَ عن بَرْدِ الشراب مِشافِرُه

فإنه وإن عنى نفسه بالجار ، جاز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء الحال ، ليزيد في التهكم بالزبرقان ، ويؤكد ما قصده من رميه بإضاعة الضيف وإسلامه للضرّ البؤس .

والاستعارة وبلاغتها

تعد الاستعارة روضة من رياض البيان ، روضة فيها للروح مراد ، وللنفوس متاع لا يجهد ولا يمل ، فهو دائما يتجدد ، روضة تبهر النفس وتخطف الطرف، فالجماد بها حى ناطق ، وللزهر بها يد تأسرك ، والشمس كيف نستظل منها بها ، والبحر المتلاطم الأمواج يحيى النفوس بعلمه ، فهى تصور المعانى خير تصوير ، وتبرزها فى حلل أحلى وأزهى مما كانت عليه فى التشبيه ،

وبها يجئ الكثير من المعانى بالقليل من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة ألوانا من الدرر لأنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة، لأن قولك رأيت بحرا معناه أنك رأيت عالما واسع العلم شبيها بالبحر وأن شبهه به فى السعة والغزارة .

ويقول عنها عبد القاهر مبينا قيمتها وسر جمالها "هى أمدّ ميدانا" وأشدّ أفتنانا ، وأكثر جريانا ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة وأبعد غوراً وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً من أن تجمع شُعَبُها وشعوبها ،وتحصر فنونها وضروبها نعم : وأسحر سحراً ، وأملأ بكل ما يملأ صدراً ، ويمتع عقلاً ، ويؤنس نفساً ، ويوفر أنساً ، وأهْدَى إلى أن تُهدى لك عَذارَى قد تُخيّر لها الجمال ، وتخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدّت فى الشرف والفضيلة باعا لا يقصُر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تُنكر وهو أن تُثير من معدنها تبراً لم تر مثله ،وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا ، ولفضائل لها من الشرف الرتبة العليا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد أكتسبت بها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، ومن خصائصها أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر ، ثم يقول : فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفيّة بادية جليّة .

وإذا نظرت فى أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها ، ولا رونق لها ما لم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها .

إن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى فى خبايا العقل كأنها قد جُسّمت حتى رأتها العيون"[1] .

معنى الاستعارة :

هى فى الأصل طلب الإعارة ، وهى نقل الشئ من حيازة فرد إلى آخر وقد سميت كذلك عند علماء البيان تشبيها لها بالإعارة المذكورة لأنها نقل اللفظ من المعنى الذى عرف به فى اللغة إلى معنى آخر يقصده المتكلم .

وفى الاصطلاح : اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له فى اصطلاح التخاطب لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، فالاستعارة مجاز علاقته المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه ، ومن هنا ندرك علاقة الاستعارة بالتشبيه وأنها مبنية عليه ، فهى تشبيه حذفت أركانه إلا أحد الطرفين ، والمتكلم بأسلوب التشبيه يلحق المشبه بالمشبه به فى صفة من أخص أوصافه وأشهرها كقولنا : حجة كالشمس ، أى فى الظهور والوضوح .

فإذا أراد المتكلم المبالغة فى تشبيه أمر بآخر فى أخص أوصافه أمكنه أن يبلغ الغاية القصوى فى المبالغة وذلك بإطلاق اسم المشبه به على المشبه مستخدما أسلوبا الاستعارة ، ولم يتيسر له ذلك إلا بعد أن أدعى بلوغ الغاية فى المشابهة التى سوغت له ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به وكونه فرداً من أفراده ، فكل من المُشبِّه والمستعير يلتقيان عند التشبيه من حيث اعطاء المشبه وصف المشبه به مبالغة وادعاء ، لكن تبلغ الاستعارة القمة فى هذا الادعاء .

فإذا أردت أن تعطى الرجل العالم حكم البحر وأخص صفاته التى يشبه

---

(١) أسرار البلاغة ٤٢-٤٣ .

الرجل به من أجلها - وهى الغزارة- فقلت مُشبّها : محمد كالبحر فى غزارة علمه ، باستخدام التشبيه المذكور فيه جميع الأركان ، أو بالغت فحذفت الوجه والأداة فقلت : محمد بحر ، فقد ادعيت مماثلة المشبه للمشبه به ، وعلى ما فى هذه المبالغة والادعاء من الجمال لكنه لا يمكن أن يرقى المشبه إلى مرتبة المشبه به باستخدام التشبيه الاصطلاحى ، لأن المشبه فرع أُلحِقَ بالمشبه به الذى هو أصل فى الصفة ، والفرع دائماً أدنى من الأصل مرتبة ، والذى يحقق بلوغ هذه المشابهة مداها فى الادعاء هو الاستعارة بأن تترك ذكر المشبه من الكلام وتطلق لفظ المشبه به عليه فتقول : رأيت بحراً مقبلاً ، مدعياً أن الرجل العالم من جنس البحر وله كل خصائصه ، فقد أتاحت لك الاستعارة أن تعيره ثوب المشبه به وهو لفظ البحر ليظهر فيه فيكون هو والبحر على حد سواء .

ويخرج عن الاستعارة بقولنا (ما تضمن تشبيه معناه بما وضع له) - ما استعمل فيما وضع له وأن تضمن تشبيه شئ بمعناه كالتشبيه المحذوف الوجه والأداة كقولك (هو أسد) وما يماثله مما يكون المشبه به فيه خبرا عن المشبه أو فى حكم الخبر - كأخبار النواسخ والحال والصفة - وبعض العلماء يسمى هذا استعارة ولكنه تشبيه بليغ عند الجمهور ، ويخرج عن الاستعارة كذلك ما جاء من أسلوب التجريد متضمناً التشبيه كقولك :

رأيت به بحراً، لأنه من علم البديع ، ولو جعل استعارة لكان فيه تشبيه الشئ بنفسه وهو لا يصح ، وإليك تفصيل ذلك .

الفرق بين الاستعارة والتشبيه المحذوف الوجه والأداة :

ناقش البلاغيون هذه القضية بإفاضة وسنعرض لهذه القضية بإيجاز لتتضح صورتها فى الأذهان .

ويرجع سبب الخلط بينهما : ما يفيده التشبيه البليغ من مبالغة فى التشبيه وهذا ما تفيده الاستعارة بادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه بـه ، ولذلك فإن:

– البعض يدخل التشبيه البليغ فى الاستعارة ، وعـلواً منه ما كـان المشبه مذكوراً فى الكلام لفظاً مثل : زيد أسـد ، أو تقديرا مثـل قولـه تعالى ﴿صم بكم عمى﴾[1] ووقع المشبه به خبراً عن المشبه كهذين المثالين ، أو فـى حكم الخبر – كخبر كان وإن ، والمفعول الثانى لعلم ، والحال مثل : كان البطل أسدا ، علمته أسدا ، جاءنى أسدا .

– لكن جمهور البلاغيين يجعل ذلك من قبيل التشبيه ولا يدخلـه فـى الاستعارة ، ويذكرون أدلة على كونه تشبيها مفرقين بين التشبيه البليغ والاستعارة بأن .

– فى التشبيه البليغ يقع المشبه به محكوما به على غيره ، وفى الاستعارة يقع المشبه به محكوماً عليه بغيره .

– التشبيه مقصود بذاته فى التشبيه البليغ ، ومقصود فى الاستعارة على سبيل التبعية فهو وسيلة لنقل لفظ المشبه به إلى المشبه .

– المشبه فى التشبيه البليغ لابد من وجوده فى الكلام إما لفظا أو تقديرا ولا يذكر فى الاستعارة إلا إذا كانت مكنية فيحذف المشبه بـه ويرمز إليه بصفته ويبقى المشبه فى مقابل حذف المشبه به ، ومن ثم فالتشبيه يراعى فيه وجود الطرفين والاستعارة يراعى فيها وجود أحدهما .

---

(١) سورة البقرة ١٨ .

ولتوضيح ذلك : فإن الخبر أو ما هو فى حكم الخبر يفيد إثبات معنى الخبر للمبتدأ ، فإن استحال هذا الإثبات كما فى : زيد أسد ، لمخالفته الواقع ، فزيد ليس أسداً على الحقيقة ، وتلك قرينة على أنه ليس المقصود إثبات حقيقة الأسد لزيد ، بل مشابهته للأسد ، ومن ثم يكون التشبيه عندئذ غرضا مقصودا بالذات وليس وسيلة إلى غيره فيستحق اسم التشبيه .

وهذا بخلاف الاستعارة ، فقولنا : غنّتْ لنا ظبية ، فإن المشبه به هنا .

– وهو الظبية – لم يخبر به عن شئ ؟ وإنما أخبر عنه بوقوع الغناء ، منه ، والكلام جئ لإثبات الغناء لا لإثبات التشبيه كما فى زيد أسد .

كما أن التشبيه هنا ليس مقصوداً لذاته بل مقصود تبعا للتوصل به إلى جعل المشبه واحدا من أفراد المشبه به ، ولذلك يُتناسى التشبيه ويدل عليه بحذف المشبه ، وأحياناً بترشيح الاستعارة بأوصاف لا تلائم المشبه ولا توجد فيه .

– إن حذف المشبه فى الاستعارة ربما أوقع فى الوهم أن المراد بالمشبه به معناه الحقيقى وذلك قبل التثبت من مدلول القرينة ، ولا يقع هذا الوهم فى التشبيه البليغ لأن وجود المشبه فيه يدل على أن مبنى الكلام على التشبيه لا على الاستعارة ، وأن المشبه به مراد به معناه الحقيقى .

وأدا بذكر التفصيل فإليك رأى الإمام عبد القاهر :

– بعد تقرير هذا نجد أن الإمام عبد القاهر يضع مقياسا لبيان ما يمكن أن يكون صالحا للاستعارة أو غير صالح لها مما جاء على نحو ، (هو أسد) فقال : فإن أبيت إلا أن تطلق اسم الاستعارة على هذا القسم (التشبيه المحذوف الأداة) فإن حسن دخول أدوات التشبيه لا يحسن إطلاق الاستعارة عليه ، وذلك كأن يكون اسم المشبه به معرفة كقولك : زيد الأسد ، فإنه يحسن أن يقال : زيد

كالأسد وهو شمس النهار ، فيحسن أن يقال : خِلْته شمس النهار .

– وإن حسن دخول بعض الأدوات دون بعض هان الخطب في اطلاق اسم الاستعارة ، وذلك كأن يكون نكرة غير موصوفه كقولك : زيد أسد ، فإنه لا يحسن أن يقال : زيد أسد ، ويحسن أن يقال : كأنّ زيدا أسدٌ ، ووجدته أسدا .

– وإن لم يحسن دخول شئ من أدوات التشبيه إلا بتغيير لصورة الكلام كان إطلاق الاستعارة عليه أقرب لغموض تقدير أداة التشبيه فيه ، وذلك بأن يكون نكرة موصوفة بما لا يلائم المشبه به ، كقولك فلان بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لا تغيب ، وكقوله :

شمس تألّق والفراق غروبها   عنّا ، وبدر والصدود كسوفه

فإنه لا يحسن دخول الكاف ونحوه فى شئ من هذه الأمثلة ونحوها إلا بتغيير صورته كقولك : هو كالبدر إلا أنه يسكن الأرض ، وكالشمس إلا أنه لا يغيب .

وكالشمس المتألقة إلا أن الفراق غروبها ، وكالبدر إلا أن الصدود كسوفه، وقد يقرب إطلاق الاستعارة عليه أكثر ، وذلك مثل قول أبى الطيب:

أسد دم الأسد الهزبر خضابه   موت فريص الموت منه يرُعد

فإنه لا سبيل إلى أن يقال : إن المعنى : هو كالأسد ، وكالموت ، لما فى ذلك من التناقض ، لأن تشبيهه بجنس السبع المعروف دليل أنه دونه أو مثله ، وكذلك لا يصح أن يشبه بالموت المعروف ، ثم يُجعل الموت يخاف منه ، وكذا قول البحترى :

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغرباً   وموضع رجلى منه أسودُ مظلمُ

إن رُجع فيه إلى التشبيه الساذج حتى يكون المعنى هو كالبدر ، لزم أن

يكون قد جعل البدر المعروف موصوفاً بما ليس فيه ، فظهر أنه إنما أراد أن يثبت من الممدوح بدراً له هذه الصفة العجيبة التى لم تعرف للبدر ، فهو مبنى على تخييل أنه زاد فى جنس البدور واحدا له تلك الصفة ، - يعنى أن موضع رجله مظلم لا ينيره هذا البدر - فالكلام موضوع لا لإثبات الشبه بينهما ولكن لإثبات تلك الصفة ، فهو كقولك : زيد رجل كيت وكيت ، لم تقصد اثبات كونه رجلا ، لكن إثبات كونه متصفاً بما ذكرت فإذا لم يكن اسم المشبه به فى البيت مجتلباً لإثبات الشبه ، تبين أنه خارج عن الأصل الذى تقدم من كون الاسم مجتلباً لإثبات الشبه ، فالكلام فيه مبنى على أن كون الممدوح بدراً أمر مستقر ، وإنما العمل فى إثبات الصفة الغريبة .

وأيضا هذا النحو إذا فلّيتَ عن سره وجدت محصوله أنك تدّعى حدوث شئ هو من الجنس المذكور ، إلا أنه اختص بصفة عجيبة لم يتوهم جوازها على الجنس فلم يكن لتقدير التشبيه فيه معنى .

- وإن لم يكن المشبه به خبرا للمشبه ولا فى حكم الخبر كقولهم : رأيت بفلان أسداً ، ولقينى منه أسد ، سُمىّ تجريدا ، ولم يسمّ استعارة ، لأنه إنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على ما يُدّعى أنه مستعار له ، إما باستعماله فيه أو بإثبات معناه له ، والاسم فى هذا غير جار على المشبه بوجه .

ولأنه يجئ على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه فيظن أنه استعارة كقوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ سورة فصلت ٢٨- إذ ليس المعنى على تشبيه جهنم بدار الخلد إذهى نفسها دار الخلد ... ولا يسمى تشبيها أيضاً لأن اسم المشبه به لم يجتلب فيه لإثبات التشبيه (انظر الايضاح ٢٨١-٢٨٤ ، وأسرار البلاغة ٣٢٨) .

العلاقة بين التجريد وكل من التشبيه والاستعارة :

إذا أفاد الكلام معنى المشابهة وذكر فيه المشبه والمشبه به ، ولم يقع المشبه به خبرا عن المشبه ولا فى حكم الخبر كأسلوب التجريد فى قولك : لقيت بمحمد أسداً ، وقابلت به بحراً ، فإن أسدا لم يقع خبراً عن محمد ، وكذلك بحراً لم يقع خبرا عن الضمير المجرور بباء التجريد .

وهذا الأسلوب لا يعد من الاستعارة لذكر المشبه فيه ، كما لا يعد من التشبيه البليغ لعدم الإخبار بالمشبه به عن المشبه .

ومن ثم فالتجريد لا يدخل فى باب التشبيه الصريح عند معظم البلاغيين لكونه أسلوبا مستقلا وإفادته للتشبيه بمضمون الكلام لا بصريح اللفظ ، كما أن بعض صوره لا تفيد التشبيه وإن أفادت المبالغة فى إثبات الصفة ، كقولك : لى من محمد صديق حميم ، وقوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾[1] .

– هذا ، ويرى الخطيب فى أن الخلاف بين العلماء فى جعل التشبيه البليغ من قبيل الاستعارة خلاف لفظى يرجع إلى اختلافهم فى تعريف كل من التشبيه والاستعارة .

فمن عَرّف التشبيه بأنه : الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى بأداة مذكورة ، فإنه يجعل كل ما حذفت منه الأداة استعارة سواء ذكر المشبه مع المشبه به كالتشبيه البليغ ، أو حذف كالاستعارة ، فمناط الفرق بين التشبيه والاستعارة عند هؤلاء هو الأداة ، فما ذكر فيه أداة التشبيه ليس استعارة

---

(١) لمزيد من التفصيل فى هذه القضية يراجع أسرار البلاغة ٣٢٩ ، وما بعدها والمطول ٣٥٨-٣٦٠-٤٣٢ وكذلك : الإفصاح للشيخ الحجار عليه رحمه الله .

عندهم بل هو تشبيه ، وما حذفت منه الأداة فاستعارة .

ومن عَرَّف التشبيه بأنه الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بأداة مذكورة أو مقدرة ، فإنه يخرج التشبيه البليغ من الاستعارة .

وكذلك من عرف الاستعارة بأنها : ما تضمن تشبيه المعنى المراد بالمعنى الذى وضع له اللفظ ، أخرج التشبيه البليغ منها ، حتى لا يلزم تشبيه الشئ بنفسه .

ومن عرّفها : بأنها الكلام الذى بنى التشبيه فيه على حذف الأداة ودعوى الاتحاد بدخول المشبه فى جنس المشبه به ، أدخل التشبيه البليغ فى باب الاستعارة .

الفرق بين الاستعارة والكذب :

يزعم بعض المتزمتين من علماء الكلام أن الاستعارة تدخل فى الكذب لأننا ندعى للشئ أمراً ليس فيه ، ولكن هذا الزعم غير صحيح لأن الاستعارة تفارق الكذب من جهتين :

١- أنها مبينة على التأويل بادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به ، والكذب لا تأويل فيه ولا ادعاء .

٢- لابد فى الاستعارة من قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقى للفظ المستعار، والكاذب لا يأتى بقرينة تدل على ارادة غير ما يدل عليه كلامه ، وإنما هو دائما يحاول تمويه كلامه .

وقوع الاستعارة فى أعلام الأشخاص :

الأصل فى الاستعارة أن لا تقع فى العلم الشخصى كمحمد وحاتم والقاهرة ، لأن هذه الأعلام موضوعة لذوات معينة لتفيد الشخص وعلم الاشتراك ، ولا تفيد الجنسية المقتضية للعموم واندراج افراد كثيرين يدخلون تحت الجنس ، والمعروف أن الاستعارة تقوم على أساس ادعاء دخول المشبه فى

جنس المشبه بـه واعتبـاره مـن أفـراده ، ولذلـك لا تصلـح الأعـلام الشـخصية للاستعارة لدلالتها على ذات واحدة ، إلا أنه قد يشـتهر صـاحب العلـم بصفـة معروفة للناس تجعل اسمه إذا أطلق تبـادر إلى الذهـن منـه معنـى الصفـة قبـل أن يتبادر معنى الذات ، ولذلك فإنه يشبه اسم الجنس حينئذ فى صلاحيـة إطلاقـه على كثيرين فيصح عندئذ أن يستعار ، كقولك سـيبويه يـدرس النحو للصـف الثانى ، تريد عالماً فى النحو وسيبويه عَلَم ، لكنه لما أشتهر بالنحو وأصبح اسمـه دالاً على التفوق والنبوغ فى النحو ، أصبح هذا الاسم كأنـه عـام يدخـل تحتـه كل ذات متفوقة فى النحو فصح أن تقع فيه الاستعارة .

قرينة الاستعارة :

هى العلامة الدالة على أن اللفظ المستعار لا يراد به معناه الحقيقى ويتعيّن بها فى الغالب المعنى المراد ، وتكون فى الاستعارة التصريحية شئ له علاقة بالمشبه، وفى المكنية شئ له علاقة بالمشبه به .

أركان الاستعارة :

للاستعارة أركان ثلاثة : المستعار له وهو المشبه ، والمستعار منه وهو المشبه بـه ، والمستعار ، وهو اللفظ المستعار أى المنقول من معناه اللغوى إلى المعنى المجازى .

نوع المجاز فى الاستعارة[1] :

يختلف العلماء حول كون الاستعارة مجازا لغويـا ، بمعنـى أن التصـرف فيهـا عن طريق تغيير دلالة الألفاظ اللغوية واستعمالها فى معـان أخـر ، أو هـى مجـاز

---

(١) انظر المطول ص٣٦٠ وما بعدها .

عقلى لأن التصرف فيها عقلى لا دخل للغة فيه ، وهذا رأى جماعة من البلاغيين .

– وقد ذهب إلى كونها مجازاً لغوياً جمهور البلاغيين واستدلوا على ذلك : بأن لفظ المشبه به – كأسد – المستعار للمشبه ، موضوع فى اللغة للحيوان المعروف لا للمشبه – وهو الرجل الشجاع– كما أنه ليس موضوعا لمعنى عام يشمل هذا الحيوان والرجل ، ولذلك كانت دلالته على المشبه من طريق التشبيه والادعاء بنقل اللفظ من الحيوان للرجل الشجاع ، وهذا تصرف فى دلالة اللفظ اللغوية ، فدلالته على المشبه بنقله من معناه مع القرينة الدالة على كونه مجازاً ، وقد منعت القرينة دلالته على معناه اللغوى حينئذ ، ولو كان لفظ أسد موضوعا لمطلق شجاع لـلزم أن يكون صفة وليس اسم جنس ، واللغويون متفقون على أنه اسم جنس وضع للدلالة على الحيوان المعروف .

– أما القائلون بأن الاستعارة مجاز عقلى ، لأن التصرف فيها مبنى على أمور عقلية فيستدلون : بأن نقل (أسد) للرجل الشجاع لا ينقل مجردا عن معناه ، فعند نقله من الحيوان إلى المشبه (وهو الرجل الشجاع) ينقل معناه معه ، وذلك بجعل الرجل الشجاع ادعاء واحداً من أفراد الأسود فيكون إطلاق اسم الأسد عليه حقيقة .

فالتصرف عندئذ : فى تحويل الرجل الشجاع من حقيقة الإنسانية إلى حقيقة الأسدية بواسطة أمور عقلية هى : التشبيه ، ثم تناسيه وادعاء أن المشبه صار واحداً من أفراد الأسود .

وأيد هؤلاء رأيهم بأن اللفظ فى الاستعارة لا ينقل إلا بعد نقل معناه للمشبه بما يلى :

– لو كان نقل الاسم مجرداً عن معناه لكانت الأعلام المنقولة –كيزيد– من

قبيل الاستعارة ، فقد نقلت من معانيها الأصلية وصارت أسماء لأشخاص دون نقل معانيها ، مع الاتفاق على أنها ليست استعارة .

– لو كان نقل اللفظ في الاستعارة مجرداً عن معناه لما افاد المبالغة وكانت الاستعارة مساوية للحقيقة ، في الدلالة .

– لو كان نقل الاسم في الاستعارة مجرداً عن معناه لصح أن تقول لمن سميته (صخراً) جعلته صخراً ، مع أن ذلك لا يجوز ، لأن الجعل معناه : التحويل من جنس إلى جنس ، لا تحويل في التسمية ، أما إذا استعرت له لفظ الصخر للدلالة على قسوته وشدّته ، جاز أن تقول : جعلته صخرا ، لادّعائك أنه كذلك ، كما استدل هؤلاء بأمثلة تؤيد ما ذهبوا إليه من أن الاستعارة مجاز عقلي فقالوا : ولهذا ، أي ولأن إطلاق أسم المشبه به على المشبه إنما يكون بعد ادعاء دخوله في جنس المشبّه به (بمعنى أن التصرف في تحويل المشبه إلى حقيقة المشبه به مبنى على الادعاء) ولولا ذلك :

– لما صح التعجب في قول ابن العميد :

قامت تُظلّلني من الشمس نفس أعزُّ على من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

فإن لفظ (شمس) مستعار لإنسان كالشمس في الحسن والبهاء ، بعد جعله واحدا من أفراد الشمس الحقيقية عن طريق التخييل والادعاء .

فلولا أنه ادعى له معنى الشمس الحقيقي وجعله شمساً على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى – إذ لا يتعجب إلا من الأمور الغريبة– فلا تعجُّب من أن يظلّل إنسان حسن الوجه إنسانا أخر ، ومدار التعجب هنا أنه ادعى للإنسان أنه شمس حقيقية تُظلّل من الشمس .

- ولو لا هذا الادعاء لما صح النهى عن التعجب فى قول ابن طباطبا :

لا تعجبوا من بلى غلالته   قدْزَرّ أزراره على القمر

الغلالة : ثوب رقيق يلبس تحت الثياب الخارجية ، ويقال : إن ضوء القمر يبلى الأثواب المصنوعة من نسيج الكتان بسرعة .

وقد استعار الشاعر القمر هنا لصاحب الوجه الحسن ، وأدخله بالادعاء فى جنس القمر الحقيقى ، ولذا لا غرابة أن تبلى ثياب هذا الإنسان ، لأنها ملاصقة لجسم القمر الذى يبلى الثياب الكتانية ، ولذلك نهى عن التعجب .

رد الجمهور على تلك الأدلة :

يذكر الجمهور : أن نقل معنى المشبه ، بادعاء دخوله فى جنسه وجعله واحدا من أفراده ، أمر فَرْضىٌ ، يقصد به المبالغة ، وليس تحويلا للمشبه إلى حقيقة المشبه به في الواقع ، وذلك لا يخرج اللفظ المستعار عن كونه مستعملا فى غير ما وضع له .

لأن اللغة حددت معنى لفظ أسد بالحيوان المخصوص ، فإذا استعمل فى الرجل الشجاع يكون مستعملا فيما وضع مهما بلغت درجة الادعاء ، كما عيّنت اللغة معنى لفظ البدر بالكواكب المعروفة فى السماء ، فإذا استعير للوجه الحسن كان مستعملاً فى غير ما وضع له .

- كما أن صحة التعجب والنهى عنه فى هذه الأبيات لا تقتضى أنك جعلت المشبه هو نفس المشبه به على الحقيقة ، وإنما جعلته داخلا فى جنس المشبه به على طريق الادعاء لتحقيق المبالغة - والفرق واضح بين جعل الشئ داخلا فى أفراد جنس أخر على سبيل التخييل والادعاء وبين جعله إياه على الحقيقة .

نصب القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي لا ينافي الادعاء في الاستعارة :

ربما يقع لبس في أن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به ينافي نصب القرينة المانعة من إرادة المشبه به في الاستعارة ، لأن دعوى دخول المشبه في جنس المشبه به تقتضي وحدتهما ، وإقامة القرينة المانعة من إرادة المشبه به وتعيين إرادة المشبه يقتضي تغايرهما .

وفي الحقيقة لا لبس في ذلك ، لأن الادعاء ليس معناه جعل حقيقة المشبه هي حقيقة المشبه به ، وإنما معناه : أنه بادعاء جعل المشبه من أفراد المشبه به تصبح أفراد المشبه به على نوعين :

نوع يمثل الحقيقة الأصلية للمشبه به ، ونوع يمثل الحقيقة الادعائية ، فإذا استعرت البدر لحسن الوجه وادعيت أنه فرد من أفراد البدر ، فقد جعلت أفراد البدر بهذا الادعاء نوعين :

نوع حقيقي ، هو الكوكب المعروف ، ونوع ادعائي وهو البدر في صورة إنسان حسن الوجه ، ومجئ القرينة في الاستعارة تمنع إرادة البدر الأصلي وتدل على إرادة البدر الادعائي وهو الإنسان حسن الوجه ، وهذا متعارف عند العرب في استعمالاتهم ، ومن ذلك قول المتنبي :

نحن قوم ملجنّ في زيّ ناس ... فوق طير لها شخوص الجمال

فقد جعل الجن نوعين : نوع هو الأجسام الخفية ، ونوع في لباس الإنس ، وجعل الطير نوعين : نوع معروف ، ونوع هو الجمال التي يركبونها ، وقد استعار الطير للجمال ، ومن ذلك قولهم : عتابك السيف – فقد جعل العتاب على نوعين : عتاب بالكلام وعتاب بضرب السيف .

ويذكر الشيخ الحجار – عليه رحمة الله – أن في هذا التعبير استعارة تهكمية، فقد نزل الضرب بالسيف منزلة العتاب بالكلام قصداً للتهكم والسخرية ، وشبه العتاب بضرب السيف ، بجامع التلطف في كلّ ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به وهو العتاب للمشبه وهو الضرب ، والقرينة : السيف .

ولا يجوز حمل هذا على التشبيه البليغ ، لأن المتكلم لا يريد أن عتابه كالسيف في شدة تأثيره ، ولكنه يريد أن يجعل الضرب بالسيف مكان العتاب.

ومنه قولهم – "تحية بينهم ضرب وجيع"

لقد جعل التحية على نوعين : نوع بالسلام ونوع بالضرب ، وفيه استعارة تهكمية ، نُزّل فيه مواجهة الأعداء بالأذى منزلة ملاقاتهم بالتحية تهكما وسخرية ، وشبه المواجهة بالاذى بالمواجهة بالتحية ، بجامع الإحسان في كل ، واستعار اسم التحية للملاقاة بالأذى ، وذكر الضرب قرينة ، وليس ذلك من التشبيه لأنه لم يقصد تشبيه التحية بالضرب

شرط الاستعارة الصحيحة :

يقول الامام عبد القاهر : ينبغي أن تعلم أنه ليس كل شئ يجئ مشبها به بكاف ، أو بإضافة "مثل" إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وتنفذ حكمها فيه، حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حدّ قولك : أديت نوراً ، تريد علماً ، وإنما يجوز ذلك : إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ، ويسهل متناوله ، ويكون في الحال دليل عليه ، وفي العرف شاهد له ، حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت ... ففي قولنا: هو كالأسد ، إذا أدخلت عليه حكم الاستعارة ، وجدت في العرف ما يبين

غرضك ، إذ يُعلم إذا قلت : رأيت أسداً ، تريد الممدوح ، أنك قصدت وصفه بالشجاعة ، هذا فيما يتعلق بالتشبيه .

فأما إذا كان من التمثيل الذى لا سبيل إلى معرفة المقصود منه الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التى يعقد بها التمثيل ، فإن الاستعارة لا تدخله ، لأن وجه الشبه إذا كان غامضا لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه ، وتنقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه ، فلو حاولت فى قوله "فإنك كالليل الذى هو مدركى" أن تعامل الليل معاملة الأسد فى "رأيت أسدا" بأن تسقط ذكر الممدوح من البيْن ، لم تجد له مذهبا فى الكلام ؛ لأنك لا تخلو من أحد أمرين :

إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجردا فتقول : إن مررت أظلنى الليل ، وهذا محال ، لأنه ليس فى الليل دليل على النكته التى قصدها من أنه لا يفوته وإن أبعد فى الهرب ، وصار إلى أقصى الأرض ، لسعة ملكه ، وطول يده فيتمكن من رد الهارب ، وغاية ما يتأتى فى ذلك أنه يريد أنه إن هرَب عنه أظلمت عليه الدنيا ولم يهتد ، وهذا شئ خارج عن الغرض ، وكلامنا على أن تستعير الاسم ليؤدى به التشبيه الذى قصد فى البيت .

وإن لم تحذف الصفة ، وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدى إلى تعسف ، إذ لو قلت : إن فررت منك وجدت ليلا يدركنى ، وإن ظننت أن المنتأى واسع ، والمهرب بعيد ، قلت مالا تقبله الطباع ، وسلكت طريقة مجهولة ، لأن العرف لم يجر بأن يجعل الممدوح ليلاً هكذا وإنما تصلح استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة كما قال ابن طباطبا : "بعث معى قطعا من الليل مظلما" — يعنى زنجيا قد بعثه المخاطب معه حين انصرف إلى منزله ، أما فى بيت النابغة

هنا فلا يصلح فيه الاستعارة لما تقدم ذكره ، وكذا قول النبي ﷺ "مثل المؤمن كمثل النخلة ، أو مثل الخامة " لا تستطيع أن تتعاطى الاستعارة فى شئ منه فتقول (رأيت نخلة ، أو خامة) على معنى رأيت مؤمنا ، إن من رام مثل هذا كان مُلْغزًا تاركاً لكلام الناس الذى يسبق إلى أفئدتهم ،

فقد ظهر أنه ليس كل شئ يجئ فيه التشبيه الصريح يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والاقتصار على المشبه به (الأسرار ٢٤٥) .

أقسام الاستعارة

ذكر البلاغيون عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، وسنذكر هنا أهم هذه الأقسام .

١- تنقسم الاستعارة من حيث ذكر أحد طرفيها إلى قسمين :

أ- التصريحية وتسمى كذلك التحقيقية وهى ما ذكر فيها لفظ المشبه به كما فى قوله تعالى : ﴿إهدانا الصراط المستقيم﴾(١) استعير لفظ الصراط المستقيم للدين الحق لتشابههما فى أن كلا منهما يوصل إلى المطلوب ، وقد سميت الاستعارة تصريحية لأن المشبه به وهو الصراط مذكور فى الكلام ، والاستعارة أيضاً فى الآية أصلية لأن المستعار أسم جامد .

ومنها قول الشاعر :

لدى أسد شاكى السلاح مُقذّف ـــ له لبد أظفاره لم تقلم

---

(١) سورة الفاتحة ٦ .

استعير لفظ أسد لبطل من أبطال الحرب مدجج بالسلاح يرمى به قومه فى المعارك لطول خبرته ، وقد أسند إليه صفات الأسد من تلبّد الشعر والأظفار ، وهو ما يعرف بالترشيح ، والاستعارة هنا تصريحية لأنه صرح فيها بلفظ المشبه به ، ومن ذلك أيضا قول أبى دلامة يذم بغلته :

أرى الشهباء تعجن إذ غدونا   برجليهـــا وتخبــز باليدين

فقد شبه الشاعر حركة رجلى البغلة فى عدم ثباتهما على الأرض وانزلاقهما إلى الأمام بحركة يدى العاجن فإنهما تنزلقان إلى الأمام بسبب رخاوة العجين ولا تثبتان فى مكان ، وشبه حركة يديها – رجليها الأماميتين – وهما بسبب ضعفهما واضطرابهما لا يتقدمان إلى الأمام ، بل تسقطان إلى الخلف فى تقوس تجاه الصدر لاستجماع القوة ، شبه ذلك بحركة يدى الخابز حيث يرفع يديه بأقراص العجين ثم يقوسهما جهة صدره ليستجمع قوته ويقذف بالأقراص فى النار ، وهذا من قبيل الحسى فقد استعار العجن لحركة الرجلين الخلفيتين ، والخبز لحركة الأماميتين .

ومما جاء من ذلك فى الاستعارة العقلية قولك لمن يحسن عرض الأمور : كشف لنا هذا الأمر بنور ساطع ، والمراد بالنور : الحجة الواضحة ، فالحجة مما يدرك عن طريق العقل لأن المراد المعانى المأخوذة من الحجة لا الألفاظ التى نسمعها من تلك الأدلة .

ومما يحتمل الحس والعقل قول الله تعالى ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾[1] فعلى تفسير لباس الجوع والخوف بما أصاب أهل القرية من همّ

(١) سورة النحل ١١٢ .

وحزن واضطراب فى التفكير وغير ذلك مما لا يدركه الحس ، جعل الاستعارة عقلية ، مبنية على تشبيه ما أحاط بهم من تلك الأحداث باللباس المشتمل على صاحبه ، واستعير اللباس لهذه الأحداث .

ومن فسره بما أصابهم بسبب الجوع والخوف – من صفرة اللون وهزال الجسم وغيرها مما يدرك بالحسن – جعل الاستعارة تصريحية حسنية ، وذلك بتشبيه ما شملهم من صفرة وهزال باللباس ، واستعارة اللباس للدلالة على أن تلك الأمور عمت جميع بدنهم .

وتأتى القرينة فى الاستعارة التصريحية على عدة وجوه :

أ– أن تكون معنى واحداً كقولك : عانقْتُ أسداً ، فإن المعانقة لا تكون إلا للرجال فدل (عانقْتُ) الذى هو قرينه ، على أنك استعرت الأسد للرجل الشجاع .

ب– أن تكون أكثر من معنى وكل واحد من هذه المعانى صالح لأن يكون قرينة ، كقولك : سلمت على بحر يوزع عطاياه ، فإن البحر مستعار للرجل الكريم ، وجاء هنا أمران كل منهما صالح لأن يكون قرينة بمفرده ، وهما (سلمت ، يوزع) عطاياه فكلاهما من خواص الرجل لا البحر ، ومن ذلك (العدل والإيمان) باعتبار وقوع الكراهة عليهما فى قول الشاعر :

فإن تعافوا العدْل والإيمانا   فإنّ فى أيمانِنَــــا نيرانا

يريد : إن كرهتم الإنصاف والإيمان با لله ورسوله نحاربكم بالسيوف التى تبرق فى أيدينا كالنيران .

وقد استعيرت النيران للسيوف ، والقرينة المانعة من إرادة النيران الحقيقية تعلق الفعل (تعانوا) بكل من العدل والإيمان ، وكل منهما صالح لأن يكون

قرينة بمفرده ، ولم يكتف الشاعر بواحد منهما لأن مراد الشاعر متوقف على كل منهما .

فالشاعر يقول لهؤلاء : إما أن تدفعوا الجزية – وهى عدل وإنصاف – ، وإما أن تؤمنوا ، فإن كرهتم العدل والإيمان حاربناكم .

جـ– أن تتكون القرينة من عدة معان ملتئمة لا يصلح واحد منها منفردا أن يكون قرينة كقول البحترى :

وصَاعقة من نصْلِه تَنكَفى بهـا ... على أرؤس الأقرَان خمْسُ سَحائِب

يصف الشاعر ممدوحه بالشجاعة والكرم ، وقد استعار (السحائب) لاصابع الممدوح تشبيها لها بالسحائب فى الجود ، والقرينة جميع ما ذكره فى البيت دالا على شجاعته ، والمكون من وجود صاعقة ، وأنها جاءت من سيف الممدوح ، وأنها تنقلب على رؤس أقرانه ، وأن الذى يقلبها عدده خمس ، –يقصد الأصابع– فدل بذلك على أن المراد بالسحائب الأصابع وليس السحب المعروفة .

ب– الاستعارة بالكناية ، وهى لفظ المشبه به المستعار للمشبه المحذوف المدلول عليه بذكر لازم من لوازمه ، فهذه الاستعارة يكون المذكور فيها المشبه مع لازم من لوازم المشبه به ، وسميت مكنية لأنه لم يصرح فيها بلفظ المشبه به ؛ وإنما ذكر ما يدل عليه وهى صفة من – أخص صفاته ، كقولنا نطقت حال فلان بالغنى ، فقد شبهت الحال بإنسان ناطق وادعى أن الحال فرد من أفراد الإنسان ، فاستعير اسم الإنسان لها ، وحذف لفظ المشبه به وهو الإنسان ورمز اليه بذكر لازمه وهو النطق ، وإثبات لازم المشبه به للمشبه يسمى استعارة تخييلية ، وسميت تخييلية لان النطق متخيل بالنسبة للحال ولا تحقق له فيها ، ومن ذلك قل لبيد :

وغَداةَ ريح قد كشفْتُ وقِرَّةٍ إذْ أصبحَتْ بيد الشمال زمامُها

فقد جعل لريح الشمال الباردة يدا ، فدل بذلك على تشبيه الشمال بالإنسان فى أن كلا منهما يتصرف فيما حوله ، لأن الشمال تتصرف فى القرّة بحكم الطبيعة فتوجهها إلى جهات مختلفة ، والإنسان يتصرف بحكم إرادته فيما حوله فيوجهه حيث يشاء ، وأثبت اليد التى هى من لوازم الإنسان للشمال ، وفى البيت استعارة أخرى حيث جعل للقرّة زماما ليدل على تشبيهها بالفرس فى أن كلا منهما يتصرف فيه غيره ، إذ القِرَّةُ تتصرف فيها ريح الشمال ، والفرس يتصرف فيها راكبها بالزمام ، وأثبت لازم المشبه به للمشبه ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح﴾[1] فقد شبه الغضب بإنسان وحذف المشبه به ورمز اليه بشئ من لوازمه وهو السكوت ، واسناد السكوت إلى الغضب هو قرينة الاستعارة ويسمى استعارة تخييلية .

وللعلماء فى هذا الآية آراء أوردها الشهاب الخفاجى[2] فقال : "السكوت والسكات: قطع الكلام ، وهو هنا استعارة بديعة .

وفى الكشاف : هذا مَثل ، كأنّ الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا ، وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء.

ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم ، وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، ولا تجد شيئا من تلك الهزة،

(١) سورة الأعراف ١٥٤ .

(٢) حاشية الشهاب ٢٢٢/٤ .

وطرفا من تلك الروعة على قراءة (ولما سكن) يعنى (أى الزمخشرى) أنه شبه الغضب بشخص آمر ناهٍ ، فهو استعارة مكنية ، وأثبت له السكوت على طريق التخييل .

وقال السكاكى : إنه استعارة تبعية ، شبه سكون الغضب وذهاب حدّته بسكوت الآمر الناهى ، والغضب قرينة تلك الاستعارة .

وقيل : مراد الزمخشرى تمثيل حال سكون الغضب بحال سكوت الناطق الآمر الناهى ، ومرجعه إلى كون الغضب استعارة بالكناية عن الشخص الناطق والسكوت استعارة تصريحية لسكون هيجانه وغليانه ، فتكون مكنية قرينتها تصريحية لا تخييلية ، ويحتمل أن تكون تبعية بناء على جوازه عنده كما مر .

وقيل : هذا من القلب ، وتقديره : سكن موسى ﷺ عن الغضب ، ولا وجه له .

آراء العلماء فى الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية :

ما ذكرته لك إنما هو خلاصة المذهب المختار فى الاستعارة بالكناية ، ولكن لعلماء البلاغة آراء حول مفهوم الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية أوجزها فيما يأتى حتى يكون لدى الطالب دراية بذلك ، وتلك الآراء لخصها الدسوقى فى حاشيته على شرح السعد فقال :

اعلم أنه قد اتفقت الآراء على أن فى مثل قولنا : أظفار المنية نشبت بفلان، استعارة بالكناية واستعارة تخييلية ، لكن اختلفت فى تعيين المعنيين اللذين يطلق عليهما هذان اللفظان .

ومحصّل الاختلاف فى المكنية يرجع إلى ثلاثه أقوال :

– أحدهما : ما يفهم من كلام القدماء ، وهو : أن المكنية اسم المشبه به

المستعار فى النفس للمشبه ، وأن إثبات لازمه للمشبه استعاره تخييلية .

– والثانى : ذهب إليه السكاكى من أن المكنية : لفظ المشبه المستعمل فى المشبه به ادعاء بقرينة استعارة ما هو من لوازم المشبه به لصورة متوهمة متخيلة شبهت به أثبتت للمشبه .

– والثالث : ما أورده المصنف (يريد به مذهب الخطيب) من أن المكنية : التشبيه المضمر فى النفس المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه –وهو الاستعارة التخييلية .

ثم يقول : ومحصل الخلاف فى التخييلية يرجع إلى قولين :

أحدهما : مذهب المصنف والقوم وصاحب الكشاف : أنها إثبات لازم المشبه به للمشبه .

والثانى : للسكاكى وهو أن التخييلية : أسم لازم المشبه به المستعار للصورة الوهمية التى اثبتت للمشبه .

ثم إن صاحب الكشاف كما يوافق القوم فى التخييلية من أنها إثبات لازم المشبه به للمشبه ، يزيد عليهم أن قرينه المكنية كما تكون تخييلية تكون أيضا استعارة تحقيقية (شروح التلخيص ٤/١٥٠) .

ونعود إلى ما ذكره الخطيب فى الإيضاح عن الاستعارة بالكناية حيث قال :

قد يضمر التشبيه فى النفس فلا يصرح بشئ من أركانه سوى لفظ المشبه ويُدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حسا أو عقلا أجرى عليه ذلك الأمر ، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها ، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية ، كما فى قول لبيد:

وغـــداة ريح قد كشفت وقرّة إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

فإنه جعل للشمال يدا ، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حساً أو عقـلاً تجرى عليـه اليد ،كإجراء الأسد على الرجل الشجاع ، والصراط علـى ملـة الإسـلام فيمـا سبق ، ولكن لما شبّه الشمال –لتصريفها القرّة على حكم طبيعتهـا فـى التصـرف – بالإنسـان المصرف لما زمامه بيده ، أثبت لها يدا على سبيل التخييل مبالغة فى تشبيهها به ، ...

ثم قال : واعلم أن الأمر المختص بالمشبه به المثبت للمشبه ، منه مالا يكمل وجه الشبه في المشبه به بدونه كما في قول أبى ذؤيب الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فإنه شبه المنية بالسبع فى اغتيال النفوس بالقهر والغلبة ، من غير تفرقة بـين نفّاع وضـرّار ، ولارقـة لمرحـوم ، ولا بقيـا علـى ذى فضيلـة ، فـأثبت للمنيـة الأظفار التى لا يكمل ذلك فى السبع بدونهـا ، تحقيقـا للمبالغـة فـى التشـبيه ، ومنه ما به يكون قوام وجه الشبه فى المشبه به كما فى قول الآخر :

ولئن نطقت بشكر برّك مفصحا فلسان حالى بالشكاية أنطق

فإنه شبه الحال الدالة على المقصود بإنسان متكلـم فـى الدلالـة ، فـأثبت لهـا اللسان الذى به قوام الدلالة فى الإنسان .

وأما قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرّى أفـراس الصبا ورواحله

فيحتمـل أن يكـون اسـتعارة تخييلية ،وأن يكـون اسـتعارة تحقيقيـة ، أمـا التخييل: فإن يكون أراد أن يبين أنه ترك ما كان يرتكبه أو أن المحبة من الجهـل والغىّ ، وأعرَض عن معاودته ، فتعطلت آلاته كـأى أمـر وطنـت النفـس علـى تركه فإنه تهمل آلاته فتتعطل .

فشبه الصبا بجهة من جهات المسير – كالحج والتجارة– قضى منها الوطر فأهملت آلاتها فتعطلت ، فأثبت له الأفراس والرواحل ، فالصبا على هذا من الصبوة ، بمعنى الميل إلى الجهل والفُتوّة ، لا بمعنى الفتاء .

وأما التحقيق : فأن يكون أراد دواعي النفوس وشهواتها ، والقوى الحاصلة لها في استيفاء الملذّات ، أو الأسباب التي قلّما تتأخذ في اتباع الغيّ إلا أوان الصبا ، ثم أخذ الخطيب بعد ذلك في مناقشة آراء السكاكي في الحقيقة والمجاز وأنواع الاستعارة وأقسامها مناقشة طويلة يضيق المقام هنا عن ذكرها ، ولمن أراد الوقوف على تفاصيل ذلك فليرجع إلى المصادر الأصيلة مثل الإيضاح ٣١١/٢ ، المطول ٣٨١ ، وشروح التلخيص ١٥٠/٤ .

الاستعارة الأصلية والتبعية

تنقسم الاستعارة باعتبار نوع اللفظ المستعار إلى قسمين : أصلية وتبعية .

أ– الاستعارة الأصلية :

هي ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس يدل على واحد غير معين من جنسه سواء كان اسم ذات يصلح بأصل وضعه – لأن يصدق على كثير ، مثل أسد ، وثعلب ، ونجم وشمس وبحر ... الخ ، أو كان اسم معنى يصلح لأن يصدق على كثير وهو المصادر ، كالخياطة والسباحة ، والنوم والفهم ... الخ ، ويدخل في الاستعارة الأصلية أسماء الأعلام التي اشتهرت بصفة ، لأنها صارت بالتأويل كأسم الجنس في دلالتها على كثير ، تقول في استعارة اسم الذات : ثعالبة الاستعمار يكيدون للعرب ، للماكرين منهم ، وتقول شاهدت أسد المعركة للشجعان ، وهكذا .

وفي استعارة اسم المعنى : تقول سبح فكري ، أي تنقل فكري في عدة

أمور ، ونام عقلى ، أى توقف عن التفكير ، وتيقّظ ضميرى ، بمعنى تنبه للواجب ..

وتقول فى استعارة العلم الشخصى : سلّمت على حاتم مصر ، وأنت تقصد رجلا كريما ، واستمعت إلى سحبان الكلية ، وأنت تريد خطيبا ماهرا ، واستفتيت أبا حنيفة اليوم ،وأنت تريد عالما بالفقه ... الخ .

وسُمّيت الاستعارة هنا أصلية لأن الاستعارة تجرى فى نفس اللفظ المذكور بطريق الأصالة والاستقلال من غير حاجة إلى استعارة أخرى تبنى عليها .

ومن الاستعارة الأصلية قوله تعالى عن سيدنا لوط ﴿قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾[1] أى آوى إلى قوىّ معين أستند إليه فيحمينى منكم ، وأصل الأركان للبنيان ، فشبه المعين الشديد بالركن فى القوة ثم استعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ،وقد صورت هذه الاستعارة المعين الذى يمثل القوة بصورة حسيّة وهو الركن ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وداعيا إلى ا لله بإذنه وسراجا منيرا﴾[2] فالسراج مستعار للتّبيين .

قال البيضاوى : يستضاء به عن ظلمات الجهالات ويقتبس من نوره أنوار البصائر .

وقال الشهاب : قال الفاضل اليمنى إنه تشبيه إما مركب عقلى ، أو تمثيلى منتزع من عدة أمور أو مفرق ، وكلام المصنف رحمه ا لله محتمل للوجه أيضاً-

---

(١) سورة هود ٨٠ وقال الزمخشرى : شبه القوى العزيز بالركن من الجبل فى شدته ومنعه الكشاف ٢/٢٨٣ .

(٢) سورة الاحزاب ٤٦ .

فيشبه فى ذاته بالسراج وما يدعو إليه بالنور أو المجموع بالمجموع ، وقوله يستضاء به بالنسبة للضالين ، وقوله يقتبس بالنسبة للمهتدين ، ولم يلتفت إلى ما جوزّه الزمخشرى من جعل السراج المنير القرآن لما فيه من التكلف . حاشية الشهاب ١٧٧/٧ .

ب- الاستعارة التبعية :

وهى ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو اسماً مشتقاً - كاسم الفاعل والمفعول والصفة المُشبّهة -أو حرفاً- كحروف الجر ، والاستفهام والترجى والتمنى ... الخ .

وسميت الاستعارة فى الفعل والمشتقات تبعية ، لأنها تكون تابعة لاستعارة أخرى تسبقها فى المصدر الذى يؤخذ منه الفعل أو الصفة ، كقولنا نام عقل فلان ، بمعنى غفل وتوقف عن الفكر ، وهذه الاستعارة تجرى أولاً فى المصدر ثم يتبعه الفعل فى هذه الاستعارة ، ففى هذا المثال نقول شبّهت الغفلة بالنوم بجامع عدم الإدراك فى كل ، ثم تنوسى التشبيه ، فحذف المشبه وأقيم المشبه به مقامه على أنه فرد من أفراده ادعاء ، ثم اشتق من النوم بمعنى الغفلة نام بمعنى غفل ، على طريق الاستعارة التبعية الأصلية .

وسميت الاستعارة تبعية فى الحرف لأن الاستعارة تجرى أولاً فى متعلق معنى الحرف ثم تسرى من هذا المتعلق إلى الحرف .

وكانت الاستعارة تبعية فى الأفعال والمشتقات لأن الاستعارة مبنية على التشبيه الذى يقتضى كون المشبه موصوفاً بوجه الشبه ، والحقائق التى لها ثبوت فى الخارج - كالأسد والبحر- أو فى العقل - كالعلم والذكاء - هى التى تصلح لأن تكون موصوفة ، والأفعال والمشتقات لا ثبوت لها لا فى

الخارج ولا فى العقل ، لكونها متجددة متغيرة فلا تصلح للوصف ، وبالتالى لا تصلح للتشبيه ، ولذا فلا بد من إجراء التشبيه أولا فى المعنى الثابت القابل للوصف وهو المصدر ، ثم يستعار المصدر المشبه به للمصدر المشبه الذى يشاركه فى وجه الشبه ، ويشتق منه الفعل حاملاً المعنى الجديد لمصدره الذى انتقل إليه بالاستعارة ، فيكون الفعل تابعاً لمصدره فى هذا المعنى كما فى المثال السابق .

وكانت الاستعارة تبعية فى الحروف لأن الحرف لا يدل على معنى مستقل بل يدل على معنى فى غيره فلا يصلح أيضاً للتشبيه الذى يقتضى الوصف ، وبالتالى لا يصلح للاستعارة لأنها مبنية على التشبيه ، ولذا فلابد من وقوع التشبيه فى متعلق معناه لأنه يستقل بالدلالة فيصلح للاستعارة .

ومتعلق معنى الحرف – عند الجمهور– هو المعنى العام الذى يفسر الحرف به مثل أن معنى (فى) الظرفية ، واللام معناها التعليل ، وهذه المعانى العامة للحروف مستقلة بالفهم فيجرى فيها التشبيه أولا ثم فى الحرف تبعا لذلك فقولنا : محمد فى نعمة ، تجرى الاستعارة هكذا : شبه الارتباط الحاصل بين النعمة وصاحبها بالظرفية التى هى ارتباط حاصل بين ظرف ومظروف ، فسرى التشبيه من هذا العام إلى أفراده ، فاستعير (فى) من فرد من أفراد المشبه به لفرد من أفراد المشبه ،

ومتعلقه عند الخطيب : مدخول الحرف ، فقولنا : محمد فى نعمة ، المتعلق النعمة ، فتشبه النعمة بظرف ومكان تحل فيه الأشياء بجامع مطلق الارتباط فى كل ، ويدل على التشبيه بلفظ (فى) الذى هو لازم من لوازم المشبه به .

أمثله للاستعارة التبعية فى الفعل والحرف :

قال تعالى ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾[1] المعنى : وآية لهم الليل نخرج منه النهار ، شبه إزالة ضوء النهار عن مكان ظلمة الليل بكشط الجلد عن الشاة أو نحرها ، بجامع ما يترتب على كل منهما وهو ظهور شئ كان خافيا ، لأن كشط الجلد يظهر لحم الشاة وغروب الشمس يظهر الظلمة ، ثم تنوسى التشبيه واستعير المشبه به للمشبه ، ثم أشتُقّ من السلخ بمعنى الإزالة نسلخ بمعنى نزيل على سبيل - الاستعارة التبعية التصريحية، والقرينة كون السلخ واقعاً على النهار وهو لا يسلخ حقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[2] المعنى : بل نورد الحق على الباطل فيذهب ، فالقذف فى الآية مستعار لإيراد الحق على الباطل فيذهبه ، ثم اشتق من القذف - بمعنى الإيراد - نقذف بمعنى نورد ، وكذلك الدمغ مستعار لإذهاب الباطل ، ثم اشتق من الدمغ بمعنى الإذهاب يدمغ بمعنى يذهب .

وفى القذف دليل على القهر ، ويدمغ أقوى فى التأثير من يذهبه ، ومنه فى المشتقات قوله تعالى ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾[3] يعنى السفيه الغوىّ ،

---

(١) سورة يس٣٧ وانظر الكشاف ٣/٣٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء ١٨ .

(٣) سورة هود ٨٧- وقال الزمخشرى نسبوه إلى غاية السفه والغىّ ، فعكسوا ليتهكموا به كما يتهكم بالشحيح فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك ، وقيل معناه : إنك للمواصف بالحلم والرشد فى قومك ، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به ، الكشاف ٢/٢٨٧ .

لأن قوم شعيب يتهكمون به وبصلاته ، فَنَزَّلوا السَّفَه والغيّ منزلة الحلْم والرُّشد قصداً للتهكم ، فشبهوا السَّفه والغيّ بالحلم والرشد .

واستعير كل من المصدرين المشبه بهما للمشبهين ، واشتق من الأول (حليم) بمعنى سفيه ، ومن الثاني (رشيد) بمعنى غويّ . ومن ذلك قوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾(٢١ آل عمران) .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾[1] أى أو من كان ضالا -فهديناه ، فالميت مستعار للضال استعارة أصلية تصريحية ، والإحياء مستعار للهداية ، أو شبهت الهداية بالإحياء بجامع ترتب المنافع في كل ، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، ثم اشتق من الإحياء بمعنى الهداية أحيا بمعنى هدى على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

ومنه في المشتقات قوله تعالى ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين﴾[2] أى جعلهم ا لله هلكى كالنبات المحصود الهامد ، وأصل الخمود للنار وهو بمعنى هادئين .

شبه هلاك القوم وثباتهم في أماكنهم بخمود النار ، بجامع عدم الحركة في كل ، ثم أدخل المشبه في جنس المشبه به ، واستعير المشبه به للمشبه ، ثم اشتق من الخمود بمعنى الثبات خامد بمعنى ثابت هالك .

---

(١) سورة الأنعام ١٢٢ وانظر الكشاف ٤٨/٢ .

(٢) سورة الأنبياء ١٥ وانظر الكشاف ٥٦٥/٢ .

هـذا وقـد ذكـر الشـهاب الآراء فـى الاسـتعارة فـى الآيـة فقـال : إن قـول البيضاوى : أى جعلناهم مثل الحصيد ، يشير إلى أنه تشبيه بليغ مقدر فيـه هـلة المضاف ، الذى يطلق على الواحد وغيره ، وأفرد الحصيد لأنه ليـس هـو الخبر فى الحقيقة حتى يلزم مطابقته ، فإفراده دال على هذا التقدير ، ولا وجـه لـه ، فإنه هو المحمول فى التشبيه البليغ ، ويـلزم مطابقتـه ، فتقـول : الرجـل أسـد ، والرجال أسود ، بل المراد : أن فعيلاً بمعنى مفعول ، وهو يستوى فيه الواحـد المذكر وغيره ، فلا حاجة لتأويله بالجنس ونحوه .

وفى تفسير البيضاوى (خامدين) بمعنى (ميتـين) ، مـن خمـدت النـار ، يقـول الشهاب : وفى شرح المفتاح الشريفى : أن فى هذه الآية استعارة بالكنايـة فـى لفظ واحد ، اعنى لفظة (هم) فى (جعلناهم) حيث شـبهوا بالنبـات والنـار فـى الهلاك والزوال ، وأثبت لهم الحصاد المخصوص بالنبات .

وجاز أن يجعل (حصيدا) من باب التشبيه ففى الكشاف : أى جعلناهم مثـل الحصيـد كمـا تقـول : جعلنـاهم رمـادا ، أى مثـل الرمـاد ولا يجـوز ذلـك فـى (خامدين) إذ ليس لنا قوم خامدون حتى يُشَبَّههم هؤلاء .

لكن جاز أن يجعلا من الاستعارة التصريحية التبعيـة فـى الصفـة ، بـأن يشبـه هلاك القوم بحصاد النبت ، وخمود النار فى القطع والاستئصال .

وقـد ذهـب البيضـاوى – تبعـا للزمخشـرى– إلى أن (حصيــدا) تشـبيه ، و (خامدين) استعارة كما فى الكشف .

وذهب الطيبى والفاضل إلى أنهما تشبيه وسيأتى ما فيه ، وذهب السـكاكى إلى أنهما استعارة .

فإن قلـت : إذا كـان الطرفـان مذكوريـن هنـا وذكرهمـا مخـرج عـن حـد

الاستعارة ضرورة فكيف جاز للسكاكي جعله استعارة على المذهب الراجح ، وإلاّ فلمَ ارتكبه الشيخان ، وما الفرق بين (حصيدا وخامدين) هنا ؟

قلت : الذاهب إلى الاستعارة يجعل الطرف القوم المهلكين لا مدلول الضمير، وذكْر ما يساوى أحد الطرفين أو يشمله لا يعد مانعاً ، كما فى سورة يوسف.

وحينئذ يرد : أن المشبه بالنار الخامدة إن كان هو مدلول الضمير ورد المحذور ، ولا يفيده صيغة جمع العقلاء ، وإن كان غيره لزم كون (حصيدا) استعاره أيضا ، ولا يصح جعله تشبيها آخر فيه -وهو ميتون- لمنافاة وجه الإعراب له ، وقول الشريف : إذ ليس لنا قوم خامدون ، فيه بحث مع أن مدار ما ذكره من كون خامدين لا يحتمل التشنيه لجمعه جمع العقلاء ، المانع من أن يكون صفه للنار حتى لو قيل خامدة كان تشبيها كما صرح به فى حواشيه ، لكنه محل تردد ، لأنه كما صح الحمل فى التشبيه ادعاء فلمَ لا يصح جمعه لذلك ، ولولاه لما صحت الاستعارة أيضاً فتدبر ، حاشية الشهاب على البيضاوى ٦/٢٤٥ .

ومن الاستعارة فى الحروف قوله تعالى ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾[1] الاستعارة واقعة فى لام التعليل وإجراؤها : أنه شبهت العداوة والحزن المترتبان على الالتقاط والحاصلان بعده بالعلة الحقيقية التى التقطوه من أجلها – وهى الفرح والسرور الناشئ من التبنى– أو الانتفاع

(١) القصص ٨ .

بجامع ترتب كل منهما على الالتقاط رجاء أو واقعا ، ثم استعيرت اللام من معناها الحقيقى – وهو ترتب العلة غير الحقيقية عليه – على سبيل الاستعارة التبعية فى الحرف ، والقرينة دخول اللام على العداوة والحزن والاستعارة هنا أجريت فى مدخول الحرف أولا ثم فى الحرف .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا﴾[1] .

والمعروف أن هل للاستفهام ، وقد استعملت هنا للتمنى على طريق الاستعارة لإنزال المتمنى البعيد الحصول فى صورة الممكن القريب الوقوع إظهارا لكمال العناية به والرغبة فيه ، وقد شبه مطلق التمنى بمطلق الاستفهام بجامع الطلب فى كل ، ثم استعير هل الموضوعة للاستفهام للدلالة على التمنى.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ولأصلبنّكم فى جذوع النخل﴾ سورة طه ٧١ – حيث يقدر تشبيه الجذوع المستعلى عليها بالظروف ، فيسرى ذلك التشبيه إلى تشبيه تلبّس المستعلى بالجذوع بتلبّس الظرف بالمظروف ، فاستعيرت "فى" الموضوعة لتلبّس الظرف بالمظروف لتلبس المستعلى بالجذوع المستعلى عليها .

وقال الزمخشرى : شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكّن الشيء المُوعى فى وعائه فلذلك قيل (فى جذوع النخل) الكشاف ٥٤٦/٢ .

وقال الخطيب : ومما يتصل بهذا أن (يا) حرف وضع فى أصله لنداء البعيد ، ثم استعمل فى مناداة القريب لتشبيهه بالبعيد باعتبار أمر راجع إليه أو إلى المنَادِى .

أما الأول فكقولك لمن سها وغفل وإن قرب : يا فلان .

---

(١) سورة الأعراف ٥٣ .

وأما الثانى فكقول السائل فى جؤاره : يارب ، يا أالله ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، فإنه استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظانّ الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله تعالى ، ومنازل المقربين هضما لنفسه ، وإقرارا عليها بالتفريط فى جنب الله تعالى ، مع فرط التهالك على استجابة دعوته ، والإذن لندائه وابتهاله . الإيضاح ٢٩٩/٢ .

ومن الاستعارة التبعية فى الفعل قول ابن المعتز :

جُمِعَ الحقُّ لنا فى إمام قَتل البُخْل وأحْيا السَّماحا

فالقتل مستعار للإزالة ، ثم اشتق من القتل بمعنى الإزالة قتل بمعنى أزال على طريق الاستعارة التبعية ، وكذا الإحياء مستعار لنشر الجود بمعنى إذاعته بين الناس ، ثم اشتق من الإحياء بمعنى النشر أحيا بمعنى نشر .

قرينة الاستعارة التبعيةَ فى الأفعال والصفات :

ترجع قرينة الإستعارة ههنا إلى واحد مما يأتى :

أ- فقد تكون القرينة نفس فاعل الفعل الذى وقعت فيه الاستعارة ، عندما لا يمكن أن يقع الفعل من ذلك الفاعل على الحقيقة ، مثل : نطقت حالُ فلان بالغنى ، فالحال لا يتأتى منها النطق ولكنها تدل ، ولذا فالنطق هنا مستعار للدلالة .

ب- وقد تكون القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلى مفعول الفعل الذى جرت فيه الاستعارة ، عندما لا يمكن أن يتعلق الفعل بذلك المفعول على الحقيقة ، كقول ابن المعتز :

جُمع الحق لنا فى إمام قتلَ البخل وأحْيا السماحا

فالقتل مستعار لإزالة البخل ، والإحياء مستعار لنشر الجود ، ولا يمكن على

الحقيقة أن يكون البخل مفعولاً للفعل قتل ، وكذا لا يمكن أن يكون السماح مفعولا لأحيا لأنهما من الأمور المعنوية ، وكان ذلك قرينة على أن القتل والإحياء مستعاران .

وقد تكون القرينة فى تعلق الفعل بمفعوله الثانى دون الأول بأن يكون مما لا يصح أن يقع عليه ذلك الفعل كقول كعب بن زهير .

صبحنا الخزرجية مرهفات أباد ذوى أرومتها ذووها

يقول : حَيَّيْنَا الخزرج بطعنات فتكت بهم فأهلكنا أصحاب الرياسة والأصل من تلك القبيلة ، وقد استعار التصبيح بالتحية للطعن بتنزيل الطعن منزلة التحية تهكما والقرينة : إيقاع الفعل (صبحنا) على المفعول الثانى (مرهفات) وهو لا يصح وقوعه عليه فى الحقيقة ، فالتحية لا تكون بالمرهفات ومثله قول القطامى :

نقْريهم لهذميَّاتٍ نَقِدُّ بها ما كان خاط عليهم كل زَرَّادِ

استعير القرى (وهو ما يقدم للضيف من طعام) للضرب بالسيف ، بتنزيل الضرب بالسيف منزلة التحية بالإطعام ، والقرينة امتناع أن يتعلق الفعل (نقرى) بمفعولة الثانى (لهذميات) على الحقيقة .

جـ- وقد تكون القرينة فى تعلق الفعل المستعار بكل من مفعوليه : الأول والثانى ، كقول الحريرى :

وأقرى المسامع إمّا نَطقْـ ـتُ بيانا يقود الحرون الشموسا

والقرى وهو إطعام الضيف لا يقع على المسامع ولا على البيان حقيقة فكان دليلا على استعارة القرى لما يلقيه الشاعر من بيان مؤثر يكون له وقع فى مسامع المخاطبين .

د- وقد تكون القرينة فى تعلق الفعل المستعار بالجار والمجرور ، كقوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ فإن التبشير يكون بالسرور لا بالعذاب ، فتعلّق الفعل (بشر) بالعذاب قرينة على أنه مستعار للإنذار .

هـ- وقد تكون القرينة فى كل من فاعل الفعل ومفعوليه والجار والمجرور ، كقول الشاعر :

تُقرى الرياحُ رياضَ الحزْن مُزْهَرة ... إذا جرَ النَّومُ فى الأجفان إيقاظا

يقول : إن الرياح تحدث تأثيرا أثناء الليل على الأزهار فيتفتح منها ما كان مغلقا من الأزاهير ، والقرينة أن القرى لا يقع من الرياح على الحقيقة ، ولا يقع حقيقة على المفعول الأول (الرياض) ، ولا الثانى (تفتح الزهر) المعبر عنه بطريق الاستعارة (بالإيقاظ) ولا يتعلق بالجار والمجرور وهو (الأجفان) .

ومن أقسام الاستعارة باعتبار الجامع :

ما بحثه البلاغيون من كون الجامع داخلا فى حقيقة الطرفين أو غير داخل ، فجعلوها بهذا الاعتبار قسمين :

الأول : أن يكون الجامع فيها داخلا فى حقيقة الطرفين[1] بأن يكون جزءا من مفهوم كل منهما ، ومجئ الجامع بهذه الصورة يجعل الاستعارة واضحة قريبة التناول ، ومن ذلك : استعارة الطيران للعدْو (المشى بسرعة) كقول امرأة ترثى قتيلا وتصفه بالفروسية :

---

(١) راجع أسرار البلاغة ٥٥ وما بعدها .

لو يشأ طار به ذو ميعة   لا حق الآطال نَهْدٌ ذو خُصَل

تقول : إنه كان شجاعا ، لـو أراد الغـزو طـار بـه جـواد ضـامر الخاصرتين نشيط حسن الشكل ، والطـيران – وهـو قطـع المسـافة بسـرعة في الهواء – مستعار للعَدْو – الذى هو قطع المسافة بسرعة على الأرض – بجامع قطع المسافة بسرعة في كلٍ ، وهـو جـزء مـن حقيقـة الطرفـين ، لكنـه في الطيران أقوى فاستعير للعَدْو .

ومن ذلك قول النبى ﷺ "خير الناس رجل ممسـك بعنـان فرسـه كلمـا سمـع هَيْعة طار إليها" والهَيْعَةُ : الصيحة ، والمـراد أن خـير النـاس مـن كـان مسـتعدا للجهاد في سبيل الله كلما سمع صيحة مستغيث أسرع إليه لنصرته .

ومن هذا القسم : استعارة الفيضان لانبساط ضوء الفجر وانتشـاره كقـول الشاعر :

يتراكمون حول الأسـنة فى الوغى   كـالفجر فـاض علـى نجـوم الغَيْهَب

الفيض في الأصل : حركة الماء عندما يزداد ويخرج من مكانه فينبسط فيمـا يحيط به ، ولضوء الفجر حركة تشبه ذلك ، فضوؤه يظهـر مـن مكـان ويتسـع منبسطا على جوانب الأفق فالجامع بين الفجر والماء الذى يفيض هـو الانبسـاط والاتساع ، وهو داخل في حقيقة الطرفين .

والاستعارة هنا تبعية في الفعل (فاض) حيث شـبه انبسـاط الفجـر بانبسـاط الماء ، واستعار الفيض لاتساع الفجر وانتشار ضوئه ، واشتق منـه فـاض بمعنى انبسط وانتشر .

ويدخل في هذا القسم أيضا : استعارة التقْطيع لتفريق الجماعـات في قولـه

تعالى ﴿وقَطّعناهم فى الأرض أمما﴾ الأعراف ١٦٨ .

التفريق : إزالة الاتصال بين الأشياء غير الملتصقة كالجماعات ، وهو هنا مشبه بالتقطيع – الذى هو إزالة الاتصال بين الاجسام الملتصقة كالخشب ، وقد استعير التقطيع للتفريق – والله أعلم– واشتق منه الفعل قَطّع بمعنى فرّق .

ومن ذلك استعارة الخياطة – الموضوعة لضم أطراف الثوب بالخيط– لزرد الدروع – الموضوع لضم حلقات الدرع بالسلك ، فى قول القطامى :

نقريهم لهذميات نقدّ بها ما كان خاط عليهم كل زراد

فالخياطة مستعارة لزرد الدروع – على تشبيه زرد الدروع بالخياطة – بجامع ضم الأطراف فى كل ، واشتق منها خاط على سبيل الاستعارة التبعية ، ومن ذلك : استعارة النثر – وهو موضوع لتفريق الأجسام الصغيرة المجتمعة فى اليد غالبا على غير نظام – لتساقط الأجسام الكبيرة للمنهزمين وتفرقهم فى كل مكان فى قول أبى الطيب :

نثرتهم فوق الأحيدب نثرةً كما نُثرت فوق العروس الدراهم

الأحيدب ، جبل بالروم هزم عنده أبو فراس جيوش الروم هزيمة منكرة .

وقد شبّه الشاعر تفرق أجسام رجال العدو وتساقطها على غير نظام فى أرض المعركة ، شبه ذلك بتفرق الأجسام الصغار –كالدراهم– وانتشارها على غير نظام ، بجامع التفرق والتساقط على غير نظام فى كل ، واستعير النثر من المشبه به للمشبه ، واشتق منه الفعل نثر ، فالجامع متحقق فى كل من الطرفين

والقسم الثانى : ما كان الجامع فيها وصفا خارجا عن حقيقة الطرفين ،

كقولك عن أم ضمت إلى صدرها طفلتها الباكية : احتضنت الأم زهرتها حين بكت ، فالزهرة مستعارة للطفلة ، بجامع النضرة في كل ، والنضرة ليست داخلة في حقيقة الطرفين كالقسم السابق .

ويصف عبد القاهر ما كان الشبه فيه مأخوذا من الصور العقلية في هذا القسم بقوله : وضرب ثالث وهو الصميم الخالص من الاستعارة ، وحدّه : أن يكون الشبه مأخوذا من الصور العقلية ، كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق ، المزيلة للشك ... كقوله تعالى ﴿واتبعوا النور الذى أنزل معه﴾ الأعراف ١٥٧- وكاستعارة الصراط للدين في قوله تعالى ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ الشورى ٥٢ فإنك لا تشك في أنه ليس بين النور والحجة ما بين (طيران الطائر - وجرى الفرس) من الاشتراك في عموم الجنس، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة ، والحجة كلام ، وكذا ليس بينهما ما بين الرجل والأسد ، من الاشتراك في طبيعة معلومة تكون في الحيوان كالشجاعة .

فليس الشبه الحاصل من النور في البيان والحجة ونحوهما إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه ، وجال في مصارفه وانتشر وانبثّ في المسافة التي يسافر طرف الانسان فيها .

وهذا - كما تعلم- شَبَهٌ لست تحصل منه على جنس ، ولا على طبيعة وغريزة، ولا على هيئة وصورة تدخل في الخِلْقَة ، وإنما هو صورة عقلية .

واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها .

وههنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ...

ثم يتحدث عن مواطن تلك الاستعارة وكيف تأتى فيقول : ولها هاهنا أساليب كثيرة ، ومسالك دقيقة مختلفة ، والقول الذى يجرى مجرى القانون والقسمة يغمض فيها ، إلا أن ما يجب أن تعلم فى معنى التقسيم لها أنها على اصول : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المدركة بالحواس على الجملة للمعانى العقلية أو أن يؤخذ من الأشياء المحسوسة لمثلها بشبه عقلى ، أو يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول[1] – يقصد تقسيم الاستعارة باعتبار طرفيها والجامع من حيث الحسية والعقلية .

تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع

تنقسم الاستعارة باعتبار حسية كل من الطرفين والجامع أو عقليتهما إلى ستة أقسام :

١ – استعارة محسوس لمحسوس بجامع حسى ، كقول الله تعالى : ﴿فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار﴾[2] والمراد : العجل الذى صنعه السامرى لليهود من حُلىّ القبط ليعبدوه ، فلفظ العجل الموضوع للحيوان المخصوص استعير للعجل المصنوع من الذهب بجامع الشكل والصوت فى كل ، وذلك كله حسّى ، وكذلك كل ما أدرك طرفاه بالحواس وكان الجامع فيه محسوسا .

---

(١) أسرار البلاغة ٦٥-٦٦ .

(٢) سورة طه ٨٨ .

٢- استعارة محسوس لمحسوس بجامع عقلى ، كقول الله تعالى : ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾(١) فقد استعير السلخ لإزالة الله ضوء النهار ليظهر الليل ، فالطرفان حسيان ، والجامع مطلق ترتب شئ على شئ ، وهو أمر معقول ، وكقوله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾(٢) إذا جعلت الاستعارة فى الفعل (اشتعل) فقد شبه انتشار الشيب فى الرأس باشتعال النار فى الحطب بجامع سرعة الانتشار وعدم إمكان التلافى فى كل منهما .

فالطرفان حسيان والجامع عقلى ، والاستعارة تبعية ، لأنه اشتق من الاشتعال بمعنى الانتشار ، اشتعل بمعنى انتشر ، ويمكن جعل هذه الآية من قبيل الاستعارة بالكناية ، بأن يشبه الشيب بالنار المشتعلة فى بياضه وإشراقه ، واستعارة النار للشيب ، وحذف لفظ النار والرمز إليها بلازمها وهو الاشتعال، وبذلك يكون كل من الطرفين والجامع حسى .

وقد مثل عبد القاهر لهذا بقول النبى ﷺ "إيَّاكم وخضراء الدمن" - وهو حديث ضعيف كما ذكر محقق الأسرار - فالشبه مأخوذ للمرأة من النبات ، وكلاهما جسم (يعنى مُحسّ) إلا أنه لم يقصد لون النبات وخضرته ، ولا طعمه ولا رائحته ، ... بل القصد شَبَهٌ عقلى بين المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، وبين تلك النابته على الدمنة - وهو بعر الماشية وما اختلط به من الطين - وهو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن ، وطيب الفرع مع خبث الأصل.

كما ذكر من ذلك : استعاره الشمس للرجل ، فى النباهة والرفعة

---

(١) سورة يس ٣٧ وانظر المطول ٣٦٩ .

(٢) سورة مريم ٤ وانظر دلائل الاعجاز ص١٠٠ .

والشرف ، والمعروف أن هذه الاستعارة تصلح للحسية أيضا باعتبار الاشراق والضياء ، (أسرار البلاغة ٦٨ وما بعدها) .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ الذاريات ٤١ - شبهت الريح التى لا تنتج مطرا ولا تلقح شجرا بالمرأة العقيم، بجامع عدم ظهور الأثر فى كلٍّ ، وحذف المشبه به ورمز إليه بلازمه وهو العقم، فالمستعار والمستعار حسيان ، والجامع عقلى ، والاستعارة على هذا الوجه مكنية .

ويمكن أن تكون من قبيل التصريحية التبعية ، وذلك بتشبيه الحالة التى فى الريح المانعة من تلقيح السحاب والشجر بالحالة التى فى المرأة المانعة من الإنجاب وهى العقم ، بجامع عدم ظهور الأثر فى كلٍّ ، واستعير العُقْمُ -وهو وصف للمرأة- للحالة التى فى الريح ، واشتق منه (عقيم) بمعنى لا ينتج أثرا ، وعلى هذا الوجه لا يكون الطرفان حسيين .

واختار الشهاب الخفاجى هذا الوجه ورجّحه على أن يقال : إن المراد أن هذه الريح لم تتضمن منفعة ، فقال : يعنى أن هذا بيان معنى مجازى آخر للريح العقيم ، وهى التى لا تلقح الشجر بزهر وثمر ، لا أنه مراد هنا ، إذ لا يصح أن يقال : المراد أرسلنا عليهم ريحا لا نفع فيها ، فشبه عدم تضمن المنفعة بعقم المرأة وهو ظاهر ، حاشية الشهاب ٩٩/٨ .

٣- استعارة محسوس لمحسوس بجامع بعضه عقلى وبعضه حسى كقولك سلمت على شمس وأنت تريد إنسانا كالشمس فى الإشراق ورفعة الشأن ، فالجامع وهو الإشراق ورفعة الشأن بعضه حسى وهو الاشراق وبعضه عقلى ، وهو الرفعة .

وقال السعد : أهمل السكاكى هذا القسم لندرة وقوعه ولانه فى الحقيقة استعارتان: الجامع فى إحداهما حسى وفى الأخرى عقلى ، فيدخل فيما تقدم، المطول ٣٧ .

٤- استعارة معقول لمعقول والجامع لا يكون إلا عقليا :

كقول الله تعالى ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾[١] فالمرقد مصدر ميمي بمعنى الرقاد والمراد به هنا الموت .

فقد استعير الرقاد - وهو كون الجسم في حالة يعدم معها الإحساس - للموت ، والجامع عدم ظهور الأفعال التي يعتد بها في كلّ ، وكلٌّ من الرقاد والموت ، وعدم ظهور الأعمال معاني عقلية .

وقد مثل عبد القاهر لهذا النوع بقوله : وأوّل ذلك وأعمّه تشبيه الوجود من الشئ مرة بالعدم ، والعدم مرة بالوجود .

أما الأول : فعلى أنه لما قلّ في المعاني التي بها يظهر للشئ قدر ويصير له ذكر ، صار وجوده كلا وجود ،

وأما الثاني : فعلى معنى أن الفاني لما فُقِد وعُدِم إلا أنه لما خلّف آثارا جميلة تحيي ذكره صار لذلك كأنه لم يُعْدَم .

وأما ما عداهما من الأوصاف فيجئ فيها طريقان :

أحدهما هذا ، وذلك في كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة ، لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، والذي إذا خلت منه لم يستحق الشرف والفضل .

تفسير هذا أنك إذا وصفت الجاهل بأنه (ميّت) وجعلت الجهل كأنه موت ، على معنى أن فائدة الحياة والمقصود منها هو العلم والاحساس ، فمتى عدمهما الحي فكأنه خرج عن حكم الحي ، ولذلك جعل النوم موتا ، إذ كان النائم لا

---

(١) سورة يس ٥٢ .

يشعر بما بحضرته كما يشعر الميت ، ...

ثم لما لم يكن علم أشرف من العلم بوحدانية الله وبما نزّله على نبيه ﷺ جُعل من حصل له هذا العلم بعد أن لم يكن كأنه إنما وَجَد الحياة وصارت صفة له ، مع وجود نور الإيمان في قلبه ، وجعل حالته السابقة التي خلا فيها من الإيمان كحالة الموت التي تُعْدَم معه الحياة ، وذلك كقوله تعالى ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ الأنعام ١٢٢ ، ويعرف هذا بالاستعارة العنادية ، ومن هذا الباب قولهم : فلان حيّ ، وحيّ القلب ، يريدون أنه ثاقب الفهم جيدّ النظر .... والطريق الثاني : في شبه المعقول من المعقول أن لا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم ولكن على اعتبار صفة معقولة يتصور وجودها ضد ما استعرت اسمه .

فمن ذلك أن يراد وصف الأمر بالشدة والصعوبة ... فيقال (لقى الموت) يقولون : لقيَ الأمر الأشد الذى هو فى كراهة النفس كالموت ، ومعلوم أن كون الشيء شديدا صعبا مكروها صفة معلومة لا تنافى الحياة ، ولا يمنع وجودها معه ، كما يمنع وجود الموت مع الحياة ، ...

... فقد عبّرت عن شدة الأمر بالموت واستعرته له ، . (انظر أسرار البلاغة ٧٤-٨٩) .

٥- استعارة محسوس لمعقول والجامع أيضاً عقلى كقوله تعالى :

للرسول عليه السلام ﴿فاصدع بما تؤمر﴾[١] والمعنى : وضح أمر الدين للناس توضيحا لا يذهب من نفوسهم كما لا يلتئم كسر الزجاج .

---

(١) سورة الحجر ٩٤ .

فقد استعير الصدع الحسى وهو كسر الزجاج للتبليغ الذى لا يذهب أثره وهو عقلى ، والجامع قوة التأثير فى كل واستعير الصدع للتبليغ والتوضيح ، واشتق منه فعل الأمر ، اصدع بمعنى بلّغ تبليغا قويا يبقى أثره على سبيل الاستعارة التبعية ، ومنه قوله تعالى ﴿وضربت عليهم الذلّة والمسّكنة﴾[1] وفى اللغة يقال : ضرب القبة والخيمة : إذا أقامها لتحيط بمن فيها ، وضرب الطين على الحائط إذا ألصقه بها فلزمها ، وعلى المعنيين يمكن إجراء الاستعارة فى الآية ، فعلى المعنى الأول يقال : شبهت إحاطة الذلة بأصحابها بإحاطة القبة بمن فيها ؛ واستعير الضرب من إحاطة القبة – وهو محسوس– لإحاطة الذلة– وهو معنى معقول – ، واشتق منه الفعل ضرب بمعنى شمل وأحاط على طريق الاستعارة التبعية الأصلية .

وعلى المعنى الثانى يقال : شبه لصوق الذلة بأصحابها ولزومها لهم بلصوق الطين بالحائط ولزومه له ، واستعير الضرب من معناه الأصلى للمعنى المراد وهو لزوم الذلة للأذلاء ، واشتق منه الفعل ضرب بمعنى لزم ، فالمستعار له أمر معقول .

٦– استعارة معقول لمحسوس ، والوجه أيضا عقلى ، كقول الله تعالى : ﴿إنّا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية﴾[2] والمراد أن الماء زاد وارتفع ، فالطغيان – وهو التعالى والتكبر – مستعار لكثرة ماء الطوفان وارتفاعه ، والجامع تجاوز الحد فى كلٍّ ، واشتق منه الفعل (طغَى) بمعنى زاد وارتفع على

---

(١) سورة البقرة ٦١ وانظر المطول ٣٧١ .

(٢) سورة الحاقة ١١ .

طريق الاستعارة التبعية ، والمستعار منه وهو الطغيان من الأمور العقلية وزيادة الماء حسي ، والجامع أمر عقلي .

الاستعارة العامية والخاصية

تنقسم الاستعارة باعتبار الجامع إلى استعارة عامية مبتذلة وخاصية نادرة .

أ- الاستعارة العامية :

هي ما كان الجامع بين الطرفين فيها ظاهرا يدركه كل أحد ، فيسهل على المتكلم استحضاره ليبنى عليه التشبيه الذى تقوم عليه الاستعارة ، ويسهل كذلك على السامع معرفة الجامع بين الطرفين فيفهم المراد بمجرد سماعه للاستعارة ، كقولك لقيت بحرا ، أى عالما ووجدت أسدا أى شجاعا .

وهذا النوع من الاستعارة لا يُعطيه البلغاء اهتماما ولا يستجيدون استعماله إلا فى المقامات التى تحتاج إلى وضوح الدلالة ، كالتكلم مع الجماهير والعامة من الناس ، ويكثر هذا النوع فى الاستعارات التى يكون الجامع فيها داخلاً فى حقيقة الطرفين كاستعارة الطيران للجرى، وكذا الاستعارات المفردة التى يكون الطرفان والوجه فيها من الأمور الحسية، كالأمثله السابقة فى استعارة المحسوس للمحسوس.

ب- الاستعارة الخاصية الغريبة :

هى ما كان الجامع فيها دقيقا يحتاج فى إدراكه وتحصيله إلى فكر وطول نظر، بحيث لا يعرفها إلا أصحاب الأذهان الصافية ، والطباع السليمة ، ودقة الجامع وبعده ؛ يرجع إلى كون الجامع أمراً عقليا ، كإزالة الحجاب ، فى استعارة النور للحجة الواضحة .

- أو لكون المشبه به نادر الحضور فى الذهن عن حضور المشبه كقول الشاعر عن رقة النسيم .

بعرض تُنوفة للرّيح فيها ۞ نسيم لا يروع التُرب وانِ

التُنوفةُ الصحراء الواسعة ، يروع التُرب يخيفه ويفزعـه ، وانِ متْعَب واهن القُوى .

فقد استعار الشـاعر الـترويع – وهـو التخويـف والإفـزاع – لإثـارة الريـح للتراب ، بعد أن شبه إثارة التراب بالإخافة بجامع الحركة الهوجاء فى كلّ ، وقد جاء وجه الشبه فى غاية الدقة ، لأن الإفزاع والإخافة بعيدة الحضور فى الذهن عند إثارة التراب فكان الجمع بينهما غريبا نادرا ، ومن ذلك قول ابن المعتز :

يناجينى الإخلاف من تحت مطله ۞ فتختصم الآمال واليأس فى صدرى

المعنى : يدلّنى الإخلاف دلالة خفية مستترة بالمطل على أنه نصيبى من وعود الحبيب ، فيجتمع الأمل فى نفسى بسبب الوعد ، واليأس بسبب المماطلة .

وقد استعار المناجاة – وهـى الإسـرار بـالحديث – لدلالـة الإخـلاف الخفيـة على حرمانه من الوصل ، بجامع عقلى هو خفاء الدلالـة فـى كـلّ . – والجـامع العقلى خفى بالنسبه للحسىّ .

ويرجع حسن هذه الاستعارة إلى جعل الإخلاف مستترا تحت المطـل ، كأنـه يدل على نفسه من وراء ستار .

وفى قولـه ﴿تختصـم الآمـال واليـأس فـى صـدرى﴾ استعير الاختصـام لوقوع الأمل فى صدره مرة واليأس مرة أخرى كأنهما يتنازعان مكانا واحدا ، بجامع مطلق التدافع بين شيئين متعارضين ، وفى هذا الجامع خفاء ودقة .

ويقـول الشـيخ الحجـار – عليـه رحمة الله– فـى رأيـى : أن تخريـج هــاتين الاستعارتين على أساس المكنية ، وذلك بتشبيه الإخلالف بإنسـان يتحـدث مـن وراء ستار ، والأمل واليـأس بمتخـاصمين يتنازعـان مكانـا للإقامـة فيـه أحسـن

وأجمل ، وأكثر إبرازا للتخييل البديع الذى يتخيله الشاعر .

– أو لكون الجامع مشتملا على شئ من التفصيل كقول طفيل :

وجعلت كورى فوق ناجية   يقتات شحم سنامها الرَّحْلُ

الكور : الرحل ، والناجية : الناقة السريعة .

يقول إنه جعل رحله فوق ناقة سريعة مدربة على الأسفار التى أهزلتها ، وقد أضعف الرحل سنامها من كثرة احتكاكه ، وقد استعار الاقتيات – أى– أكل الطعام بالفم – لإذهاب الرحل شحم السنام من احتكاكه به ، والجامع بينهما إزالة الأثر شيئا فشيئا مع طول الوقت ، واشتمل الجامع على تفصيل ظاهر لأنه لم ينظر إلى مجرد الإزالة بل نظر إليها باعتبار أنها حاصلة بالتدرج شيئا فشيئا ، وقد زاد من حسن هذه الاستعارة أن الشحم نفسه مما يقتات فيخيل إلى السامع قبل الوصول إلى نهاية البيت أن الاقتيات حقيقة وليس مستعارا ، فإذا وصلنا إلى نهاية البيت تبين لنا ما لم نتوقعه من مجئ الاستعارة من حيث لا تُحتسَب .

وقد يتصرف الشاعر فى الاستعارة العامية بما يجعلها خاصية .

ومن ذلك قول ابن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا   أنصاره بوجوه كالدنانير

أراد الشاعر أن يقول إن هذا الممدوح مطاع كثير الأنصار ، يقدم عليه أنصاره من كل فج إذا دعاهم لأمر يهمه ، وكان مجيئهم إليه صادرا عن محبة ورغبة ، لا عن قسر ورهبة حيث يجيئوا بوجوه مشرقة كالدنانير .

وقد استعار الشاعر لسيرهم إلى الممدوح سيلان السيل لشبههم به فى التدفق والكثرة ، وهذه استعارة قريبة ، ولكن الشاعر قد تصرف فيها بإضافة ما يخرجها

عن هذا الابتذال ويحولها إلى أن تكون خاصية نادرة ، وذلك بإسناد السيلان إلى الشعاب – أى الطرق فى الجبال – على طريق المجاز العقلى ليبين أن الشعاب كلها مليئة بهم ، وقد علق الجار والمجرور (عليه) بالفعل (سال) ليدل على أن سيرهم كان من أجله لشدة طاعتهم له ، وعلى هذا النمط الاستعارة فى قول الله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ والتى سبق الكلام عنها.

ومن الاستعارات العامية التى تُصُرِّفَ فيها بما جعلها خاصية قول الشاعر :

فرعاء إن نهضت لحاجتها   عَجِل القضيب وأبطأ الدعص

فرعاء : طويلة ، القضيب : الغصن ، الدعص بكسر الدال المشدّدة واسكان العين ، قطعة الرمل المستدير المجتمع ، استعار الشاعر القضيب لقامتها فى الاعتدال واللين ، والدعص لردفها بجامع الضخامة ، ووجه الشبه فى الاستعارتين ظاهر ، وقد تصرف الشاعر فى الاستعارتين فذكر معهما ما يزيل ابتذالهما ، حيث وصف القضيب بالعجلة والدعص بالإبطاء ليؤكد رشاقة القامة وضخامة الردف لأن الرشاقة تستلزم سرعة الحركة ،وضخامة الردف تستلزم بطء الحركة فهو تعبير مجازى من ذكر اللازم وارادة الملزوم ، وهو مجاز مرسل ضُمّ إلى الاستعارة العامية فنقلها إلى الخاصية ، ومثل ذلك قول كثير فى وصفه لعودته من الحج مع رفاقه وقد امتلأت الأرض بمطاياهم وهى تسير بهم سيرا لينا سهلا .

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطى الأباطح

استعار سيلان الماء – فى قوله سالت– لسير المطايا اللين السهل الشبيه بسيلان الماء ، فهى استعارة مبتذلة الجامع فيها قريب المأخذ وهو قطع المسافة بسرعة ، لكن الشاعر تصرف فى هذه الاستعارة فأذهب ابتذالها فألحق بها

مجازا عقليا ، أسند فيه السيلان– بمعنى السير– إلى الأباطح لا إلى الإبل ليتعلق السير بالأباطح لا بنفس الإبل ليدل على شدة السرعة ، ومظهر السرعة فى الابل يكون فى حركة أعناقها ، وبهذا تحولت الاستعارة إلى خاصية غريبة .

وقد يجئ التصرف فى الاستعارة العامية وتحويلها إلى خاصية بالجمع بين عدة استعارات تدور كلها حول شئ واحد ، ويحصل بمجموعها تمام الشبه بين المستعار له والمستعار منه كقول امرئ القيس يصف الليل بالطول :

فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

شبه الليل فى طوله بحيوان كالبعير له صلب – أى ظهر – وأعجاز–مؤخرته– وكلكل أى صدر ، واستعار الصلب لوسط الليل ، وجعله يتمطّى ليزداد طوله ، واستعار الصدر لأوله ، وجعله ثقيلا يقعده عن الحركة ، واستعار الأعجاز لآخر الليل ، وجعلها مترادفة متوالية ليدل على أنه ليل لا آخر له .

وقد اجتمعت هذه الاستعارات الثلاث لتحقيق غرض واحد هو طول الليل، وبهذه الاستعارات مجتمعة تكاملت الصورة بين البعير والليل ، وكل واحد من هذه الاستعارات الثلاثة كانت عامية بانفرادها لشيوع كل منها وقرب وجه الشبه فيها لكن اجتماعها معا لأداء هذا الغرض حوّلها إلى استعارة خاصية نادرة .

والاستعارات الثلاث من نوع الاستعارة المكنية حيث شبه فى كل منها الليل بحيوان وحذفه ورمز فى كل استعارة إلى خاصية من خواص هذا الحيوان، فرمز فى الأولى بالصلب ، وفى الثانية بالأعجاز ، وفى الثالثة بالكلكل .

– الاستعارة الوفاقية والعنادية :

هذا التقسيم باعتبار الطرفين ، لأن اجتماع الطرفين فى أمر واحد إما ممكن

أو ممتنع ، فإذا كان اجتماع الطرفين ممكن سميت وفاقية ، و إذا كان اجتماعهما ممتنع سميت عناية :

– أما الوفاقية فكقوله تعالى : ﴿أحييناه﴾ في قوله : ﴿أَوَمَن كان ميتاً فأحييناه﴾ (من الآية ١٢٢ الأنعام) فإن المراد بـ ﴿أحييناه﴾ : هديناه – أى : أوَمن كان ضالاً فهديناه ؟ والهداية والحياة لاشك في جواز اجتماعهما في شئ.

وأما العنادية فمنها ما كان وضع التشبيه فيه على ترك الاعتدادبالصفة وإن كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، وإذا ما خلت منه لم تستحق الشرف ، كإستعارة اسم المعدوم للموجود ، إذا لم تحصل منه فائدة من الفوائد المطلوبة من مثله ؛ فيكون مشاركا للمعدوم في ذلك ، أواسم الموجود للمعدوم إذا كانت الآثار المطلوبة منه موجودة حال عدمه ، فيكون مشاركا للموجود في ذلك ، أو اسم الميت للحى الجاهل ؛ لأنه عَدِم فائدة الحياة والمقصود منها أعنى العلم ، فيكون مشاركا للميت في ذلك ، ولذلك جُعِلَ النوم موتاً ؛ لأن النائم لا يشعر بما بحضرته ؛ كما لا يشعر الميت أو الحىُّ العاجز ، لأن العجز كالجهل يحط من قدر الحي .

ثم الضدان إن كانا قابلين للشدة والضعف ؛ كان استعارة اسم الأشد للأضعف أولى ؛ فكل من كان أقل علماً وأضعف قوة كان أولى بأن يُستَعار له أسمُ الميت ، ولما كان الإدراك أقدم من العقل في كونه خاصة للمدرك كان الأقلُّ علماً أولى باسم الميت أو الجماد في الأقل قوة .

وكذا في جانب الأشد ؛ فكل من كان أكثر عِلْماً كان أولى بأن يقال له : "إنه حى" وكذا من كان أشرف علماً ، وعليه قوله تعالى : ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ فإنّ العلم بوحدانيّة الله تعالى وما أنزله على نبيه ﷺ أشرف العلوم .

الاستعارة التهكمية والتمليحية

قد تستعمل ألفاظ المدح في نقائضها من الذم والإهانة على طريق الاستعارة، وذلك بابتناء التشبيه فيها على تنزيل التضاد الحاصل بين الطرفين منزلة التناسب لقصد التمليح أو السخرية ، ووجه الشبه في هذا النوع من الاستعارة يكون موجودا على التحقيق في المشبه به أما في المشبه فوجوده مبنى على التخييل لا على التحقيق ، كقوله تعالى عن الكفار ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] فالبشارة : الإخبار بما يجلب السرور ، قد استعيرت في الآية الكريمة للإنذار الذى هو اخبار بما يسوء ، وهما معنيان متضادان ، ولكن نزّل التضادّ الحاصل بينهما منزلة التناسب لقصد التهكم والسخرية بهم ، فقد شبه الإنذار بالبشارة بجامع إحداث السرور في كل إلاّ أن المسرة في البشارة محققة وفي الإنذار متخيلة ، ثم اشتق من التبشير بمعنى الإنذار بشر بمعنى أنذر على طريق الاستعارة التبعية التهكمية .

ومنها قوله تعالى ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾[2] فالهداية وهي الدلالة على المنافع مستعارة لسوقهم إلى طريق النار الذى ليس فيه أدنى منفعة لهم ، لكنه نزل التضاد كما قلنا حيث شبه سوقهم إلى النار بهدايتهم بجامع السرور في كل ، لكن هذا السرور محقق في الهداية متصور في السوق إلى

(١) سورة التوبة ٣٤ .
(٢) سورة الصافات ٢٢-٢٣ .

جهنم بقصد السخرية منهم . والله أعلم بمراده .

ومن ذلك قول كعب بن زهير :

صبحنا الخزرجية مرهفات أباد ذوى أرومتها ذووها

صبحنا أى حيينا بتحية الصباح ، والمرهفات الأسنة ، الأرومة الأصل والمعنى : حيينا جماعة الخزرج حين التقينا بهم بطعنات أسنة يعرفون قوة فتكها بهم فطالما أهلك أصحاب هذه السيوف من أبطالنا أصحاب الرياسة ، والأصل من قبيلة الخزرج ، وقد استعار التصبيح بالتحية للطعن بالأسنة ، بعد تنزيل الطعن منزلة التحية على طريقة الاستعارة التهكمية ، والقرينة : تعلق الفعل بالمفعول الثانى (مرهفات) لان التحية الحقيقية لا تكون بالمرهفات أصلا ، ومنه قول القطامى :

نقريهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زرّاد

فقد نزل الضرب بالسيف منزلة القِرَى وهو التحية بتقديم الطعام ، واستعير القرى – وهو طعام الضيف للضرب بالسيف الذى هو إهانة ، والجامع الإكرام فى كُلٍّ ، إلا أنه محقق فى القِرَى مُتخيل فى الضرب بالسيف ، ثم اشتق من القِرَى بمعنى الضرب ، نقرى بمعنى نضرب استعارة تبعية تهكمية ، هذا إذا أريد التهكم والسخرية .

أما إذا كان الغرض من استعمال اللفظ فى ضده إزالة السآمة عن السامع بواسطة الإتيان بشئ مستملح مستظرف سُميت الاستعارة تمليحية ، كقولك ملاطفا صديقك البخيل مثلاً : من يجهل أن جودك عمّ الكون كله ، فقد استعرت هنا اسم الجُود للبُخل بعد أن نزّلت التضاد الحاصل بينهما منزلة التناسب ، ثم شبّهت البُخْل بالجود ، بجامع الإفاضة بالخير فى كل ، لكنها فى

الجود محققة وفى البخل متخيلة ، واستعارة الجود قصد بها التمليح والملاطفة .

الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة

تنقسم الاستعارة باعتبار تجردها من الوصف الملائم لأحد الطرفين وعدم تجردها من هذا الوصف إلى ثلاثة أقسام :

١- الاستعارة المطلقة :

وهى التى لم تقترن - بعد تمام قرينتها - بصفه تلائم المشبه أو المشبه به ، وسميت مطلقة لأنها أطلقت عما يُقويها أو يضعفها من ملائمات المشبه به أو المشبه ، كقولك : طلع البدر من جانب الخدر ، تريد الحسناء ، ومنه قوله تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض﴾(١) فقد استعير الموج - وهو حركة الماء على وجه خاص - لاضطراب هؤلاء القوم بجامع شدة الحركة والاختلاف فى كل ، والقرينة : إسناد يموج إلى ضمير بعضهم والاستعارة خالية بعد القرينة من ذكر أى وصف يلائم أحد الطرفين .

وقد يكون الإطلاق بذكر ملائمات متساوية لكل من المستعار منه والمستعار له كقولك : استمعت اليوم إلى بحر فياض جيد الحديث ، فالبحر مستعار للعالم الغزير العلم بجامع السعة والغزارة ، والقرينة (استمعت) وقد ذكر فيها وصفان أحدهما يلائم المستعار منه وهو لفظ فياض ، والثانى يلائم المستعار له وهو جيد الحديث ، ولما تساوى الطرفان فى عدد الملائمات من حيث وصف كل منهما بوصف واحد قلنا أن الاستعارة مطلقة ، ومن ذلك قول كثير عزة :

---

(١) سورة الكهف ٩٩ .

رمتْني بِسَهْم ريشُه الكُحْل لم يُضر ظواهر جلدى وهو للقلب جارحُ

استعار السهم للنظر ، ولفظ ريشه من ملائمات المشبه به مأخوذ من قولهم راش السهم إذا ألصق بـه الريش ليكون أحكم فى الرماية ، والكُحَل من ملائمات المشبّه ، والاستعارة مطلقة لتساوى الطرفين فى الوصف الزائد .

٢- الاستعارة المجردة :

وهى التى قرنت بعد استيفاء القرينة بوصف يلائم المستعار لـه (المشبـه) كقولك : رأيت فى الكلية أسداً يلبس زى الرجال ، فإن الوصف المذكور وهو (يلبس زى الرجال) من ملائمات المشبه وهو الرجل الذى استعير لـه اسم الأسد أو اقترنت بتفريع كلام على الكلام الذى أديت بـه الاستعارة ملائم للمستعار له مثل : رأيت فى السوق أسدا ما أجمل زيّه ، وهو كلام مستقل بخلاف الصفة فإنها تكون جزءا من الجملة التى وقعت فيها الاستعارة .

ومنه قول البحترى :

يؤدون التحية من بعيد إلى قمر من الإيوان بادِ

الإيوان : بناء كبير ضخم ، فالقمر هنا مستعار للممدوح ، والقرينة (يؤدون التحية) ولفظ الإيوان تجريد لأنه يلائم المشبه وهو الممدوح ، لأن القمر الحقيقى لا يكون فى الإيوان وإنما يكون فى السماء ، ومنه قول المتنبى :

وغَيّبَت النّوى الظّبيَات عَنّى فساعدت البراقعُ والحِجَالا

الظبيات مستعارة للفتيات بجامع الرشاقة والحسن ، والقرينة لفظ (النوى) ، والوصف المذكور هنا يلائم المشبه وهن الفتيات ، لأن البراقع والأحجال من خواصهن ، وسميت مجردة لتجريدها عما يقويها ، لأن ذكر وصف المشبه يضعف الاستعارة لأنه يقربها من التشبيه فتخلو من المبالغة .

ومن أمثله المجردة قول الشاعر :

غمْر الرداء إذا تَبسَّم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

يصفه بكثرة العطاء وسروره بذلك ، فإذا ضحك أصبحت أمواله وجماله للسائلين ، كأنها موصودة عليهم دون غيرهم .

وقد استعار الرداء للعطاء ، والجامع : أن كلا منهما يحفظ عرض صاحبه ، ووصف الرداء بأنه غمر ، (أى كثير) وهو وصف يلائم المشبه (وهو العطاء) ولا يلائم الثوب فكان تجريدا ، والقرينة : ما دل عليه حديث الشاعر عن المال وضحك الممدوح عند الجودبه .

ومن ذلك قول الله تعالى ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ النحل ١١٢ .

فاللباس مستعار للأحداث والمصائب التى لحقت بأهل القرية ، أو لما علا وجوههم وأجسادهم من صفرة وهزال .

والإذاقة فى الأصل : إدراك طعم الأشياء باللسان استعيرت للإصابة بالمصائب ، بجامع مطلق الإدراك ، والإحساس فى كلّ ، ثم اشتهر استعمال الإذاقة فى معنى الإصابة حتى صار كالحقيقة ، وقد وقع هنا تجريدا للاستعارة بناء على هذا المعنى المشتهر فيه ، فيكون المعنى فأصابهم الله بلباس الجوع ، والإصابة تلائم الأحداث ولا تلائم اللباس ، فتكون تجريدا .

ومع أن البلاغيين يقررون أن الترشيح أبلغ من التجريد فقد جاءت الآية على التجريد وأدت الغرض المنوط بها على أبلغ وجه ، لأن للقرأن الكريم أسلوبه المتميز المعجز الذى لا يخضع لقوانين البشر .

وكان التجريد فى الآية أبلغ من الترشيح ، لأن الغرض من الآية الكريمة الدلالة على أمرين :

أولهما : شدة الإصابة ، والثانى : شمولها وعمومها ، وجعلها مرشحة لايحقق الدلالة على كل من الأمرين ، فلو قيل مثلا -كساها لباس الجوع- ليكون ترشيحا ، لأفاد الشمول ولم يفد الشدة ، لأن الكساء يلامس الجسد فالإحساس به من طريق اللمس ، وهو أضعف من الإحساس بطريق الذوق ، ولو قيل : فأذاقها طعم الجوع ، ليكون ترشيحا أيضا ، لافاد الشدة دون الشمول الذى يدل عليه اللباس .

ومن ثم كان نظم الآية على ما جاءت عليه محققا للغرض المقصود .

هذا ، وقد ناقش الشهاب توجيهات العلماء للاستعارة فى هذه الآية ورجح ما ارتآه منها جديرا بالترجيح ورفض ما ذهب إليه البعض من وقوع التخييل فى الآية مقررا أن ذلك لا يليق ببلاغة القرآن فقال رَادًا على من جعل الإذاقة تخييلا : قال المدقق فى الكشف إن الحمل على التخييل ضعيف لا يلائم بلاغة التنزيل ، ينظر الشهاب ٣٧٥/٥ فإن فيه لطائف كثيرة حول هذه الآية .

٣- الاستعارة المرشحة :

وهى التى قرنت بوصف يلائم المستعار منه (المشبه بـه) كقولك : استمعت إلى بحر فياض لا ينقطع جريانه ، فالبحر مستعار للعالم ، والقرينة (استمعت) وقد ذكر مع الاستعارة وصفان يلائمان المشبه بـه وهو البحر ، وهما فياض ، ولا ينقطع جريانه ، فكانت الاستعارة مرشحة لابتعادها بالوصفين عن التشبيه، من ذلك قوله تعالى ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾[1] فإن فى

---

(١) سورة البقرة ١٦ .

قوله ﴿اشتروا﴾ استعارة تبعية ، شبه اختيار الضلالة على الهدى بالشراء بجامع ترك مرغوب عنه وأخذ مرغوب فيه ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، واشتق من الاشتراء (اشتروا) بمعنى اختاروا على طريق الاستعارة التبعية والقرينة ، : استحالة المبادلة بين الضلالة والهدى ، والترشيح فى قوله ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ لأن الربح والتجارة مما يناسب الاشتراء الذى هو مشبه به .

ومن ذلك قول الشاعر :

ينازعنى ردائى عبد عمرو   رويدك ياأخا عمرو ابن بكر
لى الشطر الذى ملكت يمينى   ودونك فاعتجر فيه بشطر

فقد استعار الرداء للسيف بجامع أن كلا منهما يصون صاحبه ، والقرينة قوله ﴿لى الشطر الذى ملكت يمينى﴾ لأن ما يكون فى يمين المحارب هو السيف لا الرداء ، ثم وصفه بالاعتجار الذى هو لف الرأس بثوب أو غيره- والاعتجار وصف يلائم المستعار منه (المشبه به) فكان ذلك ترشيحا للاستعارة.

وسميت الاستعارة مرشحة : لأن الترشيح معناه التقوية ، وذكر الأوصاف التى تلائم المشبه به يبعد الاستعارة عن حقيقة التشبيه ويقوى فيها دعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به حتى كأنهما شئ واحد ، .

والترشيح أبلغ من الإطلاق والتجريد ، لأن الترشيح يفيد زيادة فى قوة المبالغة التى تفيدها الاستعارة ، لأنه يذهب بها إلى أبعد حد فى ادعاء أن المشبه صار عين المشبه به .

أما التجريد فإنه يميل بالاستعارة إلى جانب المشبه فيبعد الاستعارة عما تطلبه من ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به ، وأما الإطلاق فإنه وسط بين

الترشيح والإطلاق ، لأنه يقف بالمبالغة عند الحد الذى تفيده الاستعارة دون ميل إلى جانب أحد الطرفين .

إجتماع الترشيح والتجريد :

قد يجتمع الترشيح والتجريد فى استعارة واحدة بأن يذكر فيها أوصاف تلائم المستعار منه وأوصاف أخرى تلائم المستعار له ، وهذه الأوصاف إن تساوت تعد الاستعارة مطلقة ، وإن زاد أحد الطرفين عن الآخر وصفت الاستعارة باعتبار هذه الزيادة ، فإن زادت أوصاف المشبه به كانت الاستعارة من قبيل المرشحة ، وإن زادت أوصاف المشبه كانت مجردة .

ومما اجتمع فيه الترشيح والتجريد قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مُقذّف لــه لبدٌ أظـفاره لم تُقلّم

استعير الأسد للرجل الشجاع ، وشاكى السلاح من التجريد لأنه يلائم الرجل ، لأن معناه تام السلاح ، وله لبد ترشيح ، وكذا الأظفار ، لأنه يلائم الأسد (المشبه به) (ومقذّف) يحتمل التجريد إذا كان المعنى أنه يُلقى به فى الحروب كثيرا ، لأن هذا من صفة الرجل ، ويحتمل الترشيح إذا كان المعنى أنه ضخم الجثة لأنه قذف باللحم كثيرا وهذا يلائم الأسد .

هذا وقد ذكر العلماء أن الأساس الذى يبنى عليه الترشيح هو ما تقتضيه الاستعارة من تناسى التشبيه وادعاء أن المشبه أصبح واحدا من أفراد المشبه به فيستحق أن يوصف بما وصف به المشبه به من صفات ولوازم ، ولذلك ساغ أن يُجعل الصعود المعنوى صعودا حسيا على طريق الاستعارة ، وإعطائه أوصاف الصعود الحسى على سبيل الترشيح كما فعل أبو تمام فى قوله :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء

يمدح خالد بن يزيد الشيباني ويذكر أن أباه قد ترقىّ في مراتب المجد والفضائل ، فاستعار الصعود الحسى للصعود المعنوى (علو المكانة في الفضل) بجامع مطلق إرتقاء مستعظم ، وتناسى التشبيه تماما ، فجعله صاعدا إلى السماء حقيقة تراه العين ، وفرّع على ذلك ترشيحا للاستعارة وهو أن الجاهل بقدر الممدوح يظن أن له حاجة في السماء صعد يطلبها .

ومن ذلك قول ابن الرومى يمدح آل نوبخت حيث كان لهم شهرة بعلم النجوم فيقول :

كم عالم فيكم وليس بـــأن … قاس ولكن بأن رقى فَعَلا

أعلاكم في السمـــاء مجدكم … فلستم تجهلون ما جهــلا

شافهتم البدر بالسؤال في ال … أمر إلى أن بلغتم زُحَــلاَ

وقد استعار الرقى والعلو الحسى إلى السماء للرقىّ والعلو المعنوي ، لكنه وضع كلامه على أن يرينا رقيا حسيا على الحقيقة فقال : شافهتم البدر ، وبلغتم زحلا ، وتلك ترشيحات تلائم المستعار منه بنيت على الاستعارة .

كما أن تناسي التشبيه في الاستعارة سوغ للمتنبى أن يتعجب من طلوع الشمس (الممدوح) من المغرب في قوله :

كبّرتُ حول ديارهم لما بدت … منها الشموس وليس فيها المشرق

استعار الشمس لمن مدحهم وبنى على ذلك تعجبه من طلوع تلك الشموس (الممدوحين) من المغرب ، ومثل ذلك قول الشاعر :

ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه … ولا رجُلا قامت تعانقه الأسُد

استعار البدر للممدوح الذى أقبل عليه معانقا له ، كما استعار له اسم الأسد وساغ له بناء على تناسى التشبيه أن يجعله بدرا حقيقة ،وأسدا على الحقيقة ،

ويتعجب كيف يمشي نحوه هذا البدر ويعانقه ذلك الأسد ؟

وقد يزعم أحد أن الترشيح يخالف الواقع فيشبه الكذب - ويُردّ على ذلك بأن الترشيح لا علاقة له بالكذب ، ولا يخرج المعاني عن حقيقتها ، لأنه مبنيّ على أمر يعتبره البلغاء ويسوّغونه ، بل يدخل في مقاصدهم وهو :

المبالغة والادّعاء ، وقد اعتبروه في التشبيه وهو أقل مرتبة من الاستعارة في إفادة المبالغة واعتبارهم للترشيح في التشبيه يجعل اعتباره في الاستعارة من باب أو لى ، ومن ترشيح التشبيه قول سعيد بن حميد :

قلتُ زروى فأرسلتْ أنا آتيك سُحْرة قلت فالليل كان أخفى وأدنى مسرةً

فـأجابت بحجة زادت القلب حسْرة أنا شمس وإنما تطلع الشمس بُكْـرة

شبهّت تلك المحبوبة نفسها بالشمس ، ورَشّحت هذا التشبيه بقولها : تطلع الشمس بكرة ، فذكرت ما يلائم المشبه به للمبالغة في تشبيه نفسها بالشمس، وقال الفرزدق :

أبي أحمد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاء والدّلو يُمْطِر

شبه جده صعصعة بالغيث تشبيها ضمنياً بل جعله أفضل الغيثين :

صعصعة والمطر ، ففهم من هذا التفضيل أن جده شبيه بـالغيث لكن فَضْـلُ جده على الغيث أظهر ، ورشح التشبيه بقوله (يمطر) لأنه مـن أوصـاف المشبـه به، ومن ذلك قول عدى بن الرقاع يصف حمارين وحشيين :

يتعـــاوران من الغبار ملاءة بيضـــاء محكمة هما نسجاها

تُطوى إذا وردا مكانا محزنا وإذا السنابك أسْهلت نشراها

المكان المحْزن : الأرض الصلبة لا غبـار فيهـا ، والسـنابك : الحوافـر ، وأسهلت : سارت في الأرض السهلة ، شبه الغبار المتطاير من جرى الحمارين

بالملاءة البيضاء التى تختفى عندما يصلان لمكان صلب وتظهر عندما يمشيان فى أرض سهلة فيها غبار ، وذكر أن هذه الملاءة يتبادلها كل من الحمارين ، ورشح هذا التشبيه بذكر الطيِّ والنسج ، والنشر ، وكلها من أوصاف المشبه به ، ويعد هذا البيت من الوصف الدقيق انظر المطول ٣٧٨ ، والإيضاح كذلك .

الاستعارة التمثيلية (أو المجاز المركب)

تعريفها : اللفظ المركب المستعمل فى معنى مشبه بمعناه الأصلى تشبيه تمثيل، وطرفا هذه الاستعارة لابد أن يكونا مركبين ، بمعنى أن يكونا هيئتين منتزعتين من أمرين أو أمور ، حيث يشبه أحد الطرفين بالآخر ويدعى دخوله فى جنسه ويستعار للمشبه العبارة الدالة على المشبه به من غير تغيير فيها ، كقولك لمن يتشدد فى الأمر التافه ويترك الأمر العظيم :

أراك تنفق الجنية وتحرص على المليم ، فقد شبّهت حاله فى تشبثه بصغائر الأمور وتسامحه فى عظيمها بحال من يبدد الجنيه ويحرص على المليم – بجامع أنّ كلاًّ منهما يترك ما ينفع إلى ما هو قليل النفع ، وقد بولغ فى التشبيه حيث جعلت حالة المشبه هى بعينها حالة المشبه به ليمكن التعبير عن الأول بنفس التركيب الذى عبر به عن الثانى ، وعند استعارة هذا التركيب للمشبه تكون الاستعارة تمثيلية .

وقد ورد هذا اللون من الاستعارة بكثرة فى كلام العرب وفىّ القرآن الكريم والحديث النبوى .

ومن ذلك ما كتب الوليد بن يزيد لما بويع بالخلافة إلى مروان بن محمد عندما تردّد فى مبايعته :

– إنى أراك تقدم رِجْلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما

شئت ، فقد شبه حال يزيد فى تردده فى البيعة حيث يتوجه بقلبه إليها ثم يعدل عنها بحال الرجل يتردد فى الذهاب إلى أمر فتارة يقدم رجله للذهاب إليه ، وتارة يؤخرها منصرفا عن هذا الأمر ، وبعد ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به أستعير اللفظ المركب الدال على المشبه به للدلالة على المشبه ، وهذه الصورة الحسية لتقديم الرِّجْل وتأخيرها استعيرت لصورة عقلية وهى تردده فى البيعة ، أيبايع أم يمتنع ؟ فوضحتها ونقلتها من دائرة العقل إلى صورة حسية مدركة .

ومن ذلك ما يقال لمن يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى ما كان يمتنع منه (ما زال يفتل منه فى الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد) يعنى أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال من يجئ إلى البعير الصعب فيحكّه ويفتل الشعر فى ذروته وغاربه حتى يسكن ويستأنس ، وقد استعيرت العبارة الدالة على حال المشبه به للمشبه ، ومن ذلك : ما يقال لمن يعمل فى غير معمل : أراك تنفخ فى غير فحم ، وتخط على الماء، أى إنك فى فعلك كمن يفعل ذلك.

ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله﴾[1] المعنى : لا تتعجلوا بالحكم فى أمور الدين قبل ان يأذن ا لله ورسوله ويتَلَقَّىٰ الحكم به من صاحب الرسالة ، وقد مثل حال المتعجل بالحكم فى شأن من شئون الدين قبل إذن ا لله به بحال من يتقدم بين يدى متبوعه حين المشى فى الطريق – أى يسبقه– بجامع عدم المتابعة فى كل ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به – وهو التقدم بين يدى المتبوع– للمشبه ، وهو المتعجل بالحكم قبل إذن ا لله به .

---

(١) سورة الحجرات ١–وانظر الشهاب ٧١/٨ .

ومن ذلك قول النبى ﷺ (إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيب جعل الله ذلك فى كفه فيربيها كما يربى أحدكم فلوّه) الفلوّ : المهر بعد الفطام ، وقعت الاستعارة هنا فى قوله ﴿جعل ذلك فى كفه﴾ والكف محال على الله سبحانه – ولذلك شبهت حال الصدقة القليلة عند الله فى محبته لها ومضاعفة الأجر عليها لصاحبها بحال الشئ المحبوب الذى يوضع فى اليد اعتزازا وإكراما، كما أن زيادة الأجر على هذه الصدقة يشبه حال من يتعهد المهر بعد الرضاع ويعتنى به حتى يكبر .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ على رأى الزمخشرى فيما سبق فى الاستعارة بالكناية ، –وجعل من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ ٣٨ سورة ق .

معناه : لمن كان له قلب ناظر فيما ينبغى أن ينظر فيه ، واع لما يجب وعيه ، ولكن عدل عن هذه العبارة إلى ما عليه التلاوة بقصد البناء على التمثيل ، ليفيد ضربا من التخييل ،

وذلك إنه لما كان الإنسان حين لا ينتفع بقلبه فلا ينظر فيما ينبغى أن ينظر فيه ، ولا يفهم ولا يعى جُعل كأنه قد عدم القلب جملة ، كما جعل من لا ينتفع بسمعه وبصره ، فلا يفكر فيما يؤديان إليه بمنزلة العادم لهما ، ولزم على هذا أن لا يقال : فلان له قلب إلا إذا كان ينتفع بقلبه ، الإيضاح ٢/٣٠٧ ، وانظر أسرار البلاغة ٣٦٣ .

هذا ، والأمثال[1] العربية كلها التى تستعمل فى حالات شبيهة بالوقائع التى قيلت فيها فى أول أمرها استعارات تمثيلية ، لأننا ننقل جملة المثل من واقعة

---

(١) المثل قول مأثور شبه مضربه بمورده ، ومضرب المثل هو الحال التى تشبه قصته الأولى التى قيل فيها أول مرة وهذه القصة الأولى هى مورد المثل .

معينة إلى واقعة أخرى شبيهة بها ، فيقال مثلا لقوم ضيعوا على أنفسهم فرصة سانحة ثم جاؤا يطلبونها مرة أخرى .

(بالصيْف ضيَّعتِ اللبن) بكسر التاء ، فقد شبه حال أولئك الذين ضيعوا الفرصة ثم جاؤا لطلبها بحال امرأة كانت متزوجة بأشيب غنى فتركته وتزوجت بشاب فقير ، وكان ذلك صيفا ، ثم عادت إلى زوجها الأول زمن الشتاء تطلب لبنا ، بجامع العودة إلى طلب النافع بعد الانصراف عنه ، وبعد هذا التشبيه استعيرت هيئة المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية .

ومن ذلك قولك لمن يبيعك شيئا غير جيد مع نقص فى وزنه أو زيادة فى ثمنه : أحشفاً وسوء كيلة ؟ حيث شبه حال من يبيع شيئا رديئا مع نقص فى الوزن بحال من يبيع تمرا رديئا مع نقص فى الكيل بجامع الظلم المضاعف فى كلّ ، ثم استعيرت هيئة المشبه به للمشبه ، وإذا استعمل المثل فى حالة شبيهة بقصته فإنه يذكر لفظه بلا تغيير فى لفظه ويسرى ذلك على المذكر والمؤنث على حد سواء .

من مزايا الاستعارة :

تمتاز الاستعارة عن التشبيه بأمور منها :

– التشبيه يقوم على ذكر الطرفين والاستعارة يذكر فيها المشبه به فقط ويتناسى التشبيه ، حيث يقام المشبه به مقام المشبه فى التصريحية ، أما فى المكنية فيثبت فيها صفات المشبه به ولوازمه للمشبه مع حذف المشبه به وإبقاء المشبه .

– الغاية فى التشبيه إلحاق ناقص بكامل أما الاستعارة فإنها عبارة عن دعوى الاتحاد بينهما وادعاء أن المشبه هو عين المشبه به بقصد المبالغة .

– يمتاز أسلوب الاستعارة بالإيجاز فى التعبير عن المعنى ، كما أنها تجسم الأشياء المعنوية وتعرضها فى صورة مرئية ملموسة فتكون ذات أثر بالغ ووقع غاية فى اللطف ، وذلك لأن قصور الألفاظ عن ملاحقة فيض مشاعر الأديب تجعله يلجأ إلى لغة أخرى تسمو إلى مستوى نفسه الجياشة وتستطيع تصوير ما فيها من أثار القوة الوجدانية فيلجأ إلى الخيال وإلى الصورة التى تجسم المعانى مستخدما أسلوب الاستعارة التى تزيد المعنى جمالا من حيث تصوير المعنى للسامع تصويرا مؤثرا فى النفس فيستقر فى الأذهان مع الإيجاز والمبالغة .

أمثلة للاستعارة المعيبة :

استجاد النقاد الاستعارات التى يظهر فيها التلاؤم بين المعنى الحقيقى والصورة المجازيّة كالتناسب بين الرجل الشجاع والأسد ، أو المرأة والظبية ، لأن التناسب بين طرفى التشبيه يؤدى إلى التناسب فى الاستعارة المبنية عليه .

وإذا فقدت الاستعارة هذا التلاؤم والتناسب فإننا نجد النقاد يتبرؤن منها ويصفونها بالقبح والاستهجان والسماجة ، ومن ذلك قول المتنبى مادحا :

ملك منشد القريض لديه　　　يضع الثوب فى يدى بزّار

فأراد أن يصفه بالخبرة فى تمييز جيد المدح من رديئه فيكافئ على الجيد ، ولكنه لم يوفق فى الاستعارة هنا حيث شبهه ببائع الثياب ، وهذا مما لا يليق بمقام المدح الذى يهدف إلى استعطاف الممدوح ، ومن ذلك قول أبى تمام :

إلى ملك فى أيكة المجد لم يزل　　　على كبد المعروف من نيله برد

الأيكة الشجر الملتف ، وأيكة المجد من إضافة المشبه به إلى المشبه فقد جعل للمعروف كبدا لم يرد ، وهذا قبيح لعدم التلاؤم .

ومن ذلك قول أبى نواس :

ما لرِجْل المال أمست　　　تشتكى منك الكَلاَلا

أراد أن يقول أنه يتعب ماله من كثرة إنفاقـه وتوزيعـه لأنـه لا يسـتقر عنـده لكن التوفيق خالفه عندما شبه المال بإنسـان لـه رِجْل يشتكى مـن تعبهـا لأن إضافة الرِّجْل إلى المال مما يقبح ذكره .

وقد ذكر نفس هذا المعنى مسلم بن الوليـد فجـاء بـالمعنى فـى غايـة الجـودة حيث قال :

تظلّم المال والأعداء من يده　　　لا زال للمال والأعداء ظَلاّما

ومن الاستعارات القبيحة قول المتنبى :

شَرفُ ينطحُ النجوم بقرنَيْه　　　وعزُّ يقلقلُ الأجبالا

فقد صور الشرف بصورة حيوان له قرن ينطح به النجوم وهـذا لا يتناسـب مع ما تقتضيه الاستعارة من ضروة التناسب والتقارب بين المستعار له والمستعار منه ، وهكذا كل ما كان على هذا النمط من عدم التلازم .

المجاز بالحذف والزيادة :

يقول الخطيب : واعلم أن الكلمة كمـا توصـف بالمجـاز لنقلهـا عـن معناهـا الأصلى كما مضى ، توصف بالمجاز أيضا لنقلها عن إعرابها الأصلى إلى غـيره ، لحذف لفظ أو زيادة لفظ ،

أما الحذف : فكقوله تعالى ﴿واسأل القرية﴾ ٨٢ سورة يوسف – أى أهل القرية ، فإعراب القرية فى الأصل هو الجرّ ، فحذف المضاف وأعطِى المضـاف إليه إعرابه ، ونحوه قوله تعالى ﴿وجاء ربك والملـك صفاصفـا﴾ ٢٢ سـورة الفجر – أى أمر ربك ، وكذا قولهم بنو فلان يطؤهم الطريق ، أى أهل الطريق،

وأما الزيادة : فكقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ سورة الشورى - على القول بزيادة الكاف ، أى ليس مثله شيء ، فإعراب مثله فى الأصل هو النصب، فزيدت الكاف فصار جراً .

فإن كان الحذف أو الزيادة لا يوجب تغيير الإعراب ، كما فى قوله تعالى ﴿فبما رحمة من الله لنْت لهم﴾ ١٥٩ سورة آل عمران ، وقوله ﴿لئلا يعلم أهلُ الكتاب﴾ ٢٩ سورة الحديد - فلا توصف الكلمة بالمجاز .

وقال بهاء الدين السبكى فى قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقد ذكر الوالد فى تفسيره كلاما حسنا فى هذه الآية أذكره لما فيه من الفوائد - كثر كلام الناس فى الجمع بين الكاف ومثل ، وواحد منهما يكفى فى هذا المعنى ، وتحصّل من ذلك على خمسة أجوبة أذكرها بعد تقرير الإشكال وهو : أن الجمع بينهما يوهم بظاهره أن المنفى مثل المثل ، لأن النفى إنما يتسلط على الخبر ، والكاف بمعنى مثل وهي خبر ليس ، وقد دخلت على مثله فيكون المنفى مثل مثله ، وهو باطل من وجهين :

- أحدهما : أن مقصود الآية نفيِ مثله نفسه ، لا نفى مثل مثله ،
- والآخر : أن نفيِ المثل يقتضى إثبات المثل تعالى الله عن ذلك ،

فأقول : أحد الأجوبة : أن الكاف زائدة كقول رؤبة "لو احق الأقراب فيها كالمقق"

- المقق الطول - ولا يقال : فيها كالطول ، إنما يقال : فيها طول ،

ثانى الأجوبة : أنها للتأكيد ، وهو قريب من الأول : إلا أنهم شرحوه بمعنى زائد وهو :

أن الكاف للتشبيه ، ومثل للتشبيه ، فإذا أردت المبالغة جمعت بينهما فقلت:

زيد كمثل عمرو ، وفيه قول أوس بن حجر : "وقتلى كمثل النخيل" – وإذا كانت الكاف مؤكدة للتشبيه فى الإثبات انسحب ذلك على النفي ، روى سيبويه "وصاليات ككما يؤثفين" – فأدخل الكاف على الكاف .

الوجه الرابع : وهو قريب من الثالث ، وينبغى تنزيل الثالث عليه : أن لفظة مثل يكنى بها عن الشخص نفسه ، إذا قصد والمبالغة قالوا : مثلك لا يبخل ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على أخص صفاته فقد نفوه عنه ، ولك أن ترد الأربعة إلى وجهين : التأكيد والكناية ،

الوجه الخامس : أن نفى المثلية له طريقان : نفيه ، ونفي مثله ، لأن من لازم المثل أن له مثلا ، ونفي اللازم يدل على نفى الملزوم ، فتحمل الآية على نفى المثل بهذا تأمل ، ويصان القرآن والكلام الفصيح عنه ، – شروح التلخيص ٢٣٥/٤– .

الكناية

الكناية فى اللغة : مصدر كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به كما يقال كنيت عن الشئ إذا سترته ، فهى لفظ يتكلم به الإنسان ويريد غيره ، وسميت كناية لأن المتكلم بها يستر معنى ويظهر غيره .

ومعناها فى اصطلاح البلاغيين :

لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى مع المعنى الكنائى ، ويذكر عبد القاهر[1] أن الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وتابع له فى

(١) أنظر دلائل الأعجاز ٦٦ وما بعدها ، ٤٣٠ .

الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه ،،، كقولهم : هو كثير رماد القدر ، يعنون كثير القِرى ، فقد أرادوا معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يكون في الوجود إذا كان المعنى الأول : أفلا ترى إنه إذا كثر القِرى كثر رماد القِدْر .

ومن الكناية قولك : واجهتُ فلانا بالحق فاحمرّ وجهه ، فقد كنيتَ بحمرة الوجه عمّا أصابه منَ الخجل ، وقد أطلقتَ لفظ الملزوم وأردت به لازمه ، لأن حمرة الوجه عند المواجهة بالحق تستلزم الخجل وتدل عليه ، وكذلك قولك : قابلت عليا - فلوى عنقه ، وأنت تريد أن تكنى بلىّ العُنق عن الإعراض ، فأطلقتَ لفظ الملزوم وأردت اللازم ، لأن لَى العنق عند المقابلة يستلزم الإعراض ويدل عليه ، ولا يمتنع مع إرادة الكناية أن يكون المعنى الحقيقى موجودا كحصول الحمرة على الحقيقة فى وجه من أصابه الخجل ، ووجود لَىّ العنق حقيقة عند من أعرض عنك .

علاقة الكناية :

العلاقة التى تربط بين المعنى الكنائى المراد من اللفظ وبين المعنى الأصلى للفظ الذى كنى به هى علاقة التلازم سواء كان منشأ هذا التلازم عادة مشهورة كعادة إرشاد الضيوف بإيقاد النار عند كرماء العرب - أو كان منشؤه طبيعة مستقرة فى إنسان أو حيوان كتقطيب الوجه عند الغضب ، أو كان منشؤه اختصاص فعل من الافعال بنوع من الناس كاختصاص النساء بخضاب الكف واختصاص الرجال بحمل السلاح كقول الشاعر :

ومن فى كفه منهم قناة   كمن فى كفه منهم خضاب

كنى عن الرجل بمن فى كفه قناة ، وكنى عن النساء بمن فى كفه خضاب .

قرينة الكناية :

هى التى تعين المعنى المراد للمتكلم (الكنائى) ولا تنفى إرادة المعنى الأصلى معه ليكون تابعا للمعنى المراد ولا يكون مقصودا بالإفادة كقرينة المواجهة بالحق فى المثال السابق فإنها تعين المعنى المراد وهو الخجل ولا تمنع من إرادة المعنى الحقيقى .

الفرق بين الكناية والمجاز :

تختلف الكناية عن المجاز من حيث القرينة لأن قرينة المجاز تمنع من إرادة المعنى الحقيقى مع المجازى ، أما قرينة الكناية فهى لا تمنع إرادة المعنى الحقيقي مع المعنى الكنائي .

وقد أختلف العلماء فى جعل الكناية من المجاز :

١- فمن العلماء من يجعل الكناية من أنواع المجاز كابن الأثير ، لأن اللفظ فيها مستعمل فى غير ما وضع له ، فقد أطلق وأريد به معنى آخر .

٢- ومنهم من يجعلها نوعا من الحقيقة ، لانك استعملت اللفظ فيما وضع له وأردت به الدلالة على غيره من غير أن تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له .

٣- ومنهم من يجعل الكناية واسطة بين الحقيقة والمجاز كالخطيب فهى ليست حقيقة لان اللفظ لم يرد منه المعنى الحقيقى بل أريد لازمه ، وليست مجازا لان المجاز لابد له من قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، وقرينة الكناية غير مانعة من ذلك كما أن المجاز ينقل فيه اللفظ من معناه الحقيقى إلى معنى آخر أما الكناية فاللفظ لا ينقل فيها عن معناه الأصلي .

أقسام الكناية باعتبار المعنى المكنىّ عنه

تنقسم الكناية بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام :

١- الكناية عن الموصوف :

وهى الكناية التى يكون لفظها المكنىّ به دالا على صفة أو صفات لها اختصاص ظاهر بموصوف معين ، ويكون المقصود من ذكر هذه الأوصاف الدلالة بها عليه ، كقولهم عن الخمر ، أم المصائب ، لشهرتها بجلب المصائب والكوارث فى العقل والمال .

وقولهم فى الكناية عن السفينة : ابنة اليمّ لملازمتها لماء البحر دائما ، وقولهم عن القطار قديما : سليل البخار لأنه يعمل به ، وعن الطائرة ابنة الهواء ، لأنها تسير فيه باستمرار ، فقد أطلقت الصفة فى الأمثلة السابقة وأريد الموصوف بها، لوجود تلازم بينهما يجعل الذهن ينتقل من الصفة إلى الموصوف ، والأمثلة السابقة كنى فيها عن الموصوف بصفة واحدة .

وقد يكنى عن الموصوف بمجموع صفات يلزمها جميعا الموصوف كالكناية عن الانسان بأنه حىّ طويل القامة عريض الأظفار ، فهذه الصفات مجتمعة تدل على الانسان لأنها لا توجد فى غيره .

ومن الكناية عن الموصوف قوله تعالى ﴿أو من ينشؤا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين﴾[١] كنى بذلك عن المرأة ، لأن التنشئة فى الزينة وعدم القدرة على الجدال من صفات النساء .

---

(١) سورة الزخرف ١٨ .

ومن ذلك الكناية عن القلب بموطن الحلم في قول الشاعر :

ودبّت له في موطن الحلم علّة ... لها كالصلال الرّقش شرّ دبيب

ومن ذلك قول النبي ﷺ لا نجشة – عندما حدا الإبل فأسرعت في سيرها وعليها النساء – ويحك يا أنجشة سوقك بالقوارير .

فهذه كناية لطيفة عن النساء بالقوارير ، وكنى عنهن بالقوارير لحفظهن الأجنة كالقارورة تحفظ ما فيها ، ولاختصاصهن بالصفاء والحسن ، ولما فيهن من الرقة والمسارعة إلى التغير والانثلام كما يسرع الانثلام إلى القارورة لدقتها.

ومن ذلك الكناية عن الرجل والمرأة في قول المتنبي يهجو هؤلاء وإن الرجال صاروا كالنساء حيث لا قدرة لهم على القتال :

ومن في كفه منهم قناة ... كمن في كفه منهم خضاب

فالسطر الأول كناية عن الرجال ، والشطر الثاني كناية عن النساء .

لان القناة وهي الرمح مما اختص به الرجال ، الخضاب (الحناء) مما يختص بالنساء .

٢- الكناية عن صفة :

وهي الكناية التي يكون لفظها المكنيّ به دالاً على صفة بينها وبين صفة أخرى تلازم وارتباط بحيث إذا أدرك السامع من اللفظ الصفة المكنيّ بها انتقل ذهنه إلى الصفة الملازمة لها ، وهي المقصودة كقولهم عن كبير السن : أصبح يمشي على العصا ، كناية عن كبره وضعفه ، لان الاستعانة بالعصا في المشي صفة تقتضي وهن الجسم وضعفه وضعف الجسم يستلزم غالبا كبر السن[1] .

---

(١) والبعيدة ما كان الانتقال فيها من المعنى المكنى إلى المعنى المكنى عنه بواسطة أو بعدة وسائط كقولهم كناية عن الكريم : كثير رماد القدر ، فإن كثرة الرماد تستلزم إحراق الوقود وهو يستلزم كثرة

ومن أمثلة الكناية عن صفة قوله تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾[1] فغل اليد إلى العنق كناية عن البخل وقد صورت الكناية هذه الصفة الذميمة بصورة حسية تنفر منها، وبسط اليد كناية عن الإسراف والتبذير، ومن ذلك قوله تعالى عن نساء الجنة ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾[2] فقصر الطرف كناية عن عفتهن وأنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾[3] جمع دبر، وهو الخلف من الإنسان، وتولية الأدبار كناية عن الهزيمة، لأن المنهزم يكرّ هاربا فيكون ظهره في اتجاه عدوه، وقد صوّرت هذه الكناية الفرار من المعركة بصورة منفّرة تشمئزّ منها النفس وتحثّ على الثبات في ميدان المعركة.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق

= الطبخ الذي يستلزم كثرة الأكلة الذي يستلزم كثرة الطبخ الذي يستلزم كثرة الضيوف ثم الكرم.

(١) سورة الإسراء ٢٩

وقد جعل الشهاب الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية فقال: هما استعارتان تمثيليتان شبه في الأولى الشحيح في منعه العطاء بمن يده مغلولة لعنقه بحيث لا يقدر على مدها، وفي الثانية شبه المسرف ببسط اليد بحيث لا يحفظ شيئا، الشهاب ٢٦/٦.

(٢) سورة الرحمن ٥٦

(٣) سورة الأنفال ١٥

فيها﴾[1] فتقليب الكفين كناية عن التحسر والندم على ما ضاع من ماله وجهده ، ومن الكناية عن صفة الكرم قول الشاعر :

وما يك فيّ من عيب فإني . جبان الكلب مهزول الفصيل

فقد كنى عن الكرم بجبن كلبه – يعنى عدم نباحه وطرده للضيوف لانه ألف مشاهدة هذه الضيوف بكثرة فأصبحت عادة عنده ألا ينبح ، كما كنى عن الكرم أيضا بهزال الفصيل لأن أمه تذبح للضيوف فيحرم لبنها فيضعف جسمه ويهزل .

ومن الكناية عن صفة قول أبى تمام :

إذا أنا لم يحمدك عنى صاغرا عدوك فاعلم أننى غير حامد

المعنى : إذا لم أقل فى مدحك ما تجعل بلاغته أعداءك يحفظونه ويرددونه فيثنون عليك مكرهين فلا أكون مادحا لك .

وقد كنى الشاعر عن جُودة شعره وحسْن مديحه بحفظ الأعداء له مكرهين لان حفظ الأعداء له وهم لا يحبون الثناء عليه يستلزم بلوغ مديحه فى الحسن أكبر غاية حتى أن الأعداء سحروا به وحفظوه لجودته رغم أنفهم ، ولطفت هذه الكناية لقوة دلالتها على المبالغة فى المعنى المكنىّ عنه وهو جودة شعره ، وقد أكد هذه المبالغة بجعله العدوّ مكرها على حفظ الشعر لشدة إعجابه . والمراد بالصفة هنا : المعنوية لا النعت النحوى– كالجود ، والكرم ولذكاء والبخل هذا .

---

(١) سورة الكهف ٤٢ .

وقد جعل الخطيب الكناية عن صفه على ضربين : قريبة ، وبعيدة ، .

أ- القريبة ، وهى : ما ينتقل فيها إلى المطلوب بهـا بـلا واسطة ، وهـى إما واضحة كقولهـم عـن طويـل القامـة (طويـل نجاده ، وطويـل النجـاد) والفـرق بينهما: أن المثال الأول كناية ساذجة ، والثانى كناية مشتملة على تصريح ما ، لتضمن الصفة فيه – طويل– ضمير الموصوف بخلاف الأول ، ومن ذلك قـول الحماسيّ :

أبتـم الروادف والثّديّ لقمصها · مسّ البطون وأن تمس ظهوراً

– الروادف : الأعجاز – والبيت كناية عن كـبر أرداف تلـك المرأة ونتـوء ثدييها وضمور الخاصرة .

وسبب الوضوح : أن المعنى المنتقل إليه يسـهل إدراكـه بعـد إدراك المنتقـل منه لكونه لازما بينا بحسب العرف أو القرينة أو بحسب ذاته .

– وإما خفية ، كقولهم كناية عن الأبله : عريض القفـا ، فـإن عـرض القفـا وعظم الرأس – كما يقال– دليل الغبـاوة ، فعـرض القفـا مـلزوم للغبـاوة فـى اعتقادهم ، لكن فى الإنتقال من عرض القفـا إلى البلاهـة نـوع خفـاء لا يطلـع عليه كل أحد فتحتاج إلى تأمل وإعمال روية فى الوصول إليهـا ، وهـذا سـبب خفائها .

ب– البعيدة : ما ينتقل إلى المطلوب منها بواسطة ، كقولهم كناية عن الأبلـه (عريض الوسادة) ، فإنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ، ومن عرض القفا إلى البلاهة ، وسميت بعيدة : لبعد زمن إدراك المقصـود منهـا ، لاحتياجهـا فى الغالب إلى استحضار الوسائط الموجودة بين المعنى الأصلى والمعنى الكنائى . ومنها قولهم (كثير رماد القدر) كناية عن المضياف ، فإنه ينتقل من كثرة الرماد

إلى كثرة إحراق الحطب ، ومنها إلى كثرة الطبائخ ، ومنها إلى كثرة الأكلة ، ومنها إلى كثرة الضيفان ، ومنها إلى كونه كريما ،

– ومن هذا النوع قول نُصيْب :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم مِنَنٌ ظاهرة
فبابك أسهل أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالزائرين من الأم بالإبنة الزائرة

فإنه ينتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائرين معارف عنده ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدته إياهم ليلا ونهارا ، ومنه إلى لزومهم سُدَّته ، ومنه إلى تسني مباغيهم لديه من غير انقطاع ، ومنه إلى وفور إحسانه إلى الخاص والعام.

ومنه قوله .

لا أمتع العوذبالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل

فإنه ينتقل من عدم إمتاعها ، إلى أنه لا يبقى لها خصالها لتأنس بها ويحصل لها الفرح الطبيعي بالنظر إليها ، ومن ذلك إلى نحرها ، وكذا قرب الأجل ، ينتقل منه إلى نحرها ، ومن نحرها إلى أنه مضياف .

ومن لطيف هذا القسم قوله تعالى ﴿ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ ١٤٩ الأعراف أى ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمًا ، فتصير يده مسقوطا فيها ، لأن فَاهُ قد وقع فيها .

وكذا قول من يصف راعى إبل أو غنم :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

وقول الآخر :

((صلب العصا بالضرب قد دمّاها)) ، أى جعلها كالدُّمَى فى الحسن والغرض من قول الأول (ضعيف العصا) وقول الثانى (صلبالعصا) ، وهما وإن كانا فى الظاهر متضادين فإنهما كنايتان عن شئ واحد وهو حسن الرِّعْيَةِ ، والعمل بما يصلحها ، ويحسن أثره عليها ، فأراد الأول : أنه رفيق مشفق عليها، لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير ما لان من العصا .

وأراد الثانى : أنه جيّد الضبط لها عارف بسياستها فى الرعي ، يزجرها عن المراعى التى لا تحمد ، ويتوخّى بها ما تسمن عليه ، ويتضمن أيضا أنه يمنعها عن التشرد والتبدّد ، وأنها – لَمّا عرفتْ من شدة شكيمته ، وقوة عزيمته – تنساق فى الجهة التى يريدها ، وقوله (بالضرب قددمّاها) تورية حسنة ، ويؤكد أمرها قوله (صلب العصا) . (الايضاح ٢/٣٢٢-٣٢٤) .

٣- الكناية عن النسبة :

هى الكناية التى يكون المقصود بها إثبات صفة لموصوف معين أونفيها عنه فيترك المتكلم إثبات هذه الصفة لموصوفها ويثبتها لشئ يتصل به أوله به ارتباط قوى ليكون إثباتها لما يتصل بصاحبها دليلا على ثبوتها لموصوفها الحقيقى .

فإذا أريد اثبات الجود لشخص ترك إثباته له صراحة وأثبت لمكان يحوى هذا الشخص فيقال : الجود بين ثيابه ،ليتأكد بذلك وجود الجود فيه حيث جعلوا الجود موجودا فيما يحيط به من الثياب لانه ليس بين الثياب سوى ذات الشخص المتحدث عنه ، ومن ذلك قول زياد :

إن السماحة والمروءة والندى　　فى قبة ضربت على ابن الحشرج

أراد أن ينسب هذه الأوصاف لذلك الممدوح فترك التصريح بذلك وجعلها فى قبة مضروبة (مقامة) عليه ، ليدل على أن صاحبها هو صاحب هذه الصفات لأن إثبات الأمر لمكان الشئ يدل على إثباته لصاحب ذلك المكان ومن ذلك قول أبى نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

فالكناية فى كل من شطرى البيت تدل على إثبات صفة الجود للممدوح لأن كون الجود لا يجاوزه ولا يحلّ بعيدا عنه مما يستلزم كونه مستقرا فيه ، وكذا كون الجود يسير حيث يسير يدل على ملازمته له دائما .

ومن ذلك قول الشنفرى :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حُلّت

كنى الشاعر أولا عن صفه العفة بالنجاة من اللوم والذم ، لأن النجاة من اللوم تستلزم النجاة من موجبات اللوم كالفاحشة وغيرها من النقائص وذلك يستلزم العفة ، وهذه كناية عن صفة جعلت طرفا للكناية الآتية وهى إثبات النجاة منه إلى البيت .

وكنى الشاعر ثانيا عن إثبات العفّة لصاحبة البيت (المعبر عنها بالنجاة من الذم) باثباتها للمكان الذى يحيط بالمرأة وهو البيت ، واثبات العفة للمكان يستلزم إثباتها لمن يحل فيه ، وهذه كناية عن نسبة .

وقال الخطيب بعد بيان الكناية فى هذا البيت : وقد يظن أن هنا قسما رابعا، وهو أن يكون المطلوب بالكناية الوصف والنسبة معا ، كما يقال : (كثر الرماد فى ساحة عمرو) فى الكناية عن أن عمراً مضيافٌ ، وليس بذاك ، إذ ليس ما ذكر بكناية واحدة ، بل هو كنايتان :

إحداهما : عن المضيافية ، والثانية : عن إثبات تلك المضيافية لعمرو .

وقد ظهر بهذا أن طرف النسبه المثبتة بطريق الكناية يجوز أن يكون مكنيا عنه أيضا كما في هذا المثال ، وكما في البيت (يبيت بمنجاة ..... الخ) فإن حلول البيت بمنجاة من اللوم كناية عن نسبه العفة إلى صاحبه ، والمنجاة من اللوم كناية عن العفة -كما سبق بيانه- .

ومن الكناية عن النسبه قول الشاعر في مكارم ابن العميد :

وَالمجْدُ يدعو أن يدوم لجيده　　　عِقْدُ مساعي ابن العميد نظامه

والبيت مشتمل على استعارة بالكناية مع الكناية عن النسبة ، وذلك أنه شبه المجد بإنسان بديع الجمال في ميل النفوس إليه ، وأثبت له جيدا على سبيل الاستعارة التخييلية ، ثم أثبت لجيده عقدا ترشيحا للاستعارة ، ثم خصّ مساعي ابن العميد بأنها نظام ذلك العقد ، فنبه بذلك على اعتنائه خاصة بتزينيه ، وبذلك على محبته وحده له ، ونبه بتلك المحبة على اختصاصه به ، ونبه بدعاء المجد أن يدوم لجيده ذلك العقد على طلبه دوام بقاء ابن العميد ، وبذلك على اختصاصه بالمجد .

ومن ذلك : قولهم (مثلك لا يبخل) قال الزمخشرى : نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدا للمبالغة في ذلك ، فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوْه عمّن يسدّ مسدّه ، وعمّن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوْه عنه .

ونظيره : قولك للعربيِّ (العرب لا تخفر الذمم) فإنه أبلغ من قولك أنت لا تخفر الذمم ، لأن نَفْي ذلك عن كل العرب يتضمن نفيه عن المخاطب ، لأنه منهم ، ومنه قولهم : أيْفَعَتْ لداته ، وبلغت أترابه ، يريدون إيفاعه وبلوغه ،

لأن إيقاع من ولدوا معه دليل على إيقاعه من يليه أولى ، وكذا بلوغ أترابه دليل على بلوغة هو ،

تنبيه : قد يكون الموصوف فى القسم الثانى والثالث مذكور كما مر ، وقد يكون غير مذكور كما تقول فى عرض من يؤذى المسلمين (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) أى ليس المؤذى مسلما ،

– المراد بالموصوف فى الكناية عن صفه : الموصوف بالصفة المطلوبة والمراد به فى الكناية عن نسبه : الموصوف بالنسبه المطلوبة– ،

ووجه الكناية فى هذا الحديث : أن مدلول الجملة حصر الإسلام فيمن لا يؤذى ، ولا تنحصر فيه إلا بانتفائه عن المؤذى ، .

وذكر السكاكى : أن الكناية تتفاوت إلى تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وإيماء، وإشارة ، .

– فإن كانت عرضية ، فالمناسب أن تسمى تعريضا ،

– وإن كانت بينها وبين المكنى عنه مسافه متباعدة لكثرة الوسائط – كما فى كثير رماد القدر وأشباهه – فالمناسب أن تسمى تلويحا ، لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد ،

– وإن كان فيها نوع خفاء ، فالمناسب أن تسمى رمزا ، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك عن سبيل الخفية .

– وإلاّ ، فالمناسب أن تسمى إيماء وإشارة ، كقول البحترى :

أو ما رأيت المجد ألقى رحله   فى آل طلحة ثم لم يتحوّل

فإنه فى إفادة أن آل طلحة أما جد ظاهر ،

وقد وضح الدسوقى ذلك فقال : وجه كون الوسائط فيه قليلة من غير

خفاء أن تقول : إن إلقاء المجد رحله فى آل طلحة مع عدم التحول هذا معنى مجازى ، إذ لا رحل للمجد ، ولكن شبه برجل شريف له رحل يخص بنزوله من شاء ، ووجه الشبه : الرغبة فى الاتصال بكلّ ، وأضمر التشبيه فى النفس على طريق المكنية ، واستعمل معه ما هو من لوازم المشبه به ، وهو إلقاء الرحل – أى الخيمة والمنزل– تخييلا ، ولما جعل المجد ملقيا رحله فى آل طلحة بلا تحوّل لزم من ذلك كون ، محله وموصوفه آل طلحه ، لعدم وجدان غيرهم معهم ، وذلك بواسطة أن المجد – ولو شبه بذى الرحل – هو صفة لابد له من موصوف ومحل ، وهذه الواسطة بيّنة "بنفسها ، فكانت الكناية ظاهرة ، والواسطة واحدة ، فقلت الوسائط مع الظهور ، ثم إن مراده بقله الوسائط عدم كثرتها ، فيصدق بالواسطة الواحدة مع الظهور ، كعرض القفا ، فى البله بناء على ظهوره عرفا فيه (الايضاح ٣٢٧/٢ ، وشروح التلخيص ٢٧٠/٤) .

التعريض وعلاقته بالكناية :

التعريض لغة ضد التصريح ، يقال عرّضت لفلان وبفلان ، إذا قلت قولا وأنت تعنيه ، ومنه "إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب" يعنى أن المعاريض فيها سعة عن تعمد الكذب ، فالتعريض أن تميل بالكلام إلى عرض وجانب وأنت تريد جانبا آخر يفهم بالسياق والقرائن .

ومن هنا فإن التعريض ليس من مفهوم الحقيقة فقط ولا من المجاز ولا من الكناية ، لان الحقيقة هى اللفظ المستعمل فى معناه الأصلى ، والمجاز اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له فقط ، والكناية اللفظ المستعمل فى ملزوم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى .

والتعريض : أن يفهم من اللفظ معنى بالسياق والقرائن من غير أن يقصد استعمال اللفظ فيه أصلا ، ولذلك فإن التعريض يأتى بأسلوب :

الحقيقة : كقولك معرضا يانسان مهمل يجلس معكم : إنى لا أؤجل عمل اليوم إلى الغد ، وأنت تقصد هذا المقصر فى عمله .

كما يأتى التعريض بأسلوب المجاز : كقولك معرضا بامرأة معينة لا تجد من يزجرها عن سوء فعلها "تجمح الدابة عند فقد شكيمها"[1] فاستعار الدابة الجموح للمرأة المتغطرسة التى لا تجد من يقف فى وجهها ، وهذا مع ما فيه من المجاز جاء على طريق التعريض .

كما يأتى التعريض بأسلوب الكناية : كقولك معرضا بانحراف إنسان معين ﴿إنما يخشى الله من عباد العلماء﴾[2] فقد كَنَتْ الآية عن نفى خشية الله عن غير العلماء ، وعرضت مع ذلك بعدم خشيه شخص معين لله بمعونة السياق .

وقد اورد العلوى فى كتابة الطراز ١/٣٨٠ تعْريفات التعريض وناقشها فقال : التعريض فى مصطلح علماء البيان له تعريفان :

الأول : ذكره ابن الأثير وهو : أنه اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقىِ ولا المجازى .

فقوله : اللفظ الدال على الشئ ، عامَ فى جميع ما يدل عليه اللفظ من جهة

---

(١) جمح الفرس إذا غلب فارسه ، وجمحت المرأة إذا خرجت من بيته زوجها قبل الطلاق ، ويقال : كبح الدابة جذب لجامها لتقف ، والشكيمة الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

(٢) سورة فاطر ٢٨ .

النص والظاهر والحقيقة والمجاز ، وقوله : من طريق المفهوم ، يخرج جميع ما ذكرناه ، فإن دلالتها من جهة اللفظ لا من جهة مفهومها ، وقوله : لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، تفصيل لما تقدم ، وبيان له وإيضاح وليس يحترز به عن شئ آخر ، ولو حذفه لجاز .

وقرر العلوى أن هذا التعريف فاسد ، وبين كيفية فساده ،

التعريف الثانى : أن يقال فيه : هو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به ، فقولنا: الحاصل عند اللفظ ، عام يدخل تحته لفظ الحقيقة وما يندرج تحتها من النص والظاهر ، ولفظ المجاز وما يندرج تحته من الاستعارة والكناية .

وقوله (لا به) يخرج منه جميع ما ذكرناه ، لأن الحقيقة وما يندرج تحتها ، والمجاز وما يندرج تحته ، كلها مستوية فى دلالة اللفظ عليها ، وأنها حاصلة عند اللفظ ، ويدخل تحته التعريض ، فإنه حاصل بغير اللفظ ، وهو القرينة .

وإن شئت قلت فى تعريفه : هو المعنى المدلول عليه بالقرينة دون اللفظ ، لأن التعريض إنما حصل معقوله بالقرينة دون دلالة اللفظ .

وقال : إن موقع التعريض لا يكون إلا فى الجمل المترادفة ، والالفاظ المركبة ، لا الإشارة ، وهذا لا يستقل به اللفظ المفرد ، ، ولكنه ينشأ من جهة التركيب ثم ذكر الفرق بينه وبين الكناية وأنه من ثلاثة وجوه :

أولها : أن الكناية واقعة فى المجاز معدودة منه ، بخلاف التعريض ، فلا يعدّ منه لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه .

وثانيها : أن الكناية كما تقع فى المفرد فقد تكون واقعة فى المركب ، بخلاف التعريض ، فإنه لا يقع فى المفرد ،.

وثالثها : أن التعريض أخفى من الكناية ، لان دلالة الكناية مدلول عليها من

جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض فإنما دلالته من جهة القرينة والاشارة، ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح ، ومن ثم فالتعريض أخص من الكناية ، فكل تعريض كناية ، وليس كل كناية بتعريض ، فهي أعم منه .

ومن أمثلة التعريض التي أوردها ، قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ سورة هود ٢٧ – قصدوا التعريض بأنهم أحق بالنبوة ، وأن نوحا لم يكن متميزاً عليهم بشئ يجعله نبيا من بينهم ....

ثم يقول : والتعريض واقع في القرآن كثيراً مبينا أحوال الكفرة في التهكم والنقص وإسقاط المنزلة ، وحط القدر ، ومواضعها دقيقة تستخرج بالفكر الصافي والرسوخ في قدم البلاغة ، [الطراز ١/٣٨٠-٣٩٥] .

ومن أمثلة التعريض : أن امرأة جاءت إلى قيس بن عبادة فقالت : أشكو إليك قلة الفأر في بيتي ، معرضة بخلو بيتها من الطعام ، فقال : ما أحسن ما وَرَّتْ عن حاجتها ، أملأوا بيتها خبزا وسمنا .

ومن ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب كان يخطب يوم الجمعة فدخل عليه عثمان بن عفان رضى الله عنهما فقال عمر أية ساعة هذه ؟ وهذا تعريض من عمر له لتأخره عن المجئ إلى الصلاة في أول الوقت .

بلاغة الكناية :

ترجع بلاغة الكناية إلى أنها تعرض المعنى مصحوبا بالدليل ومقرونا بالبرهان ولذلك فهي تكون دائما أبلغ من التصريح ، انظر إلى قول امرئ القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضّل[1]

وصف هذه المرأة بالرفاهية والتنعم فأتى بما يدل على ذلك فذكر الكناية التى تثبت صدق ما قال ، فذكر أنها نئوم الضحى ، ليدل على أنها مخدومة عندها من الخدم من يقوم بعمل البيت ولذا فليست فى حاجة إلى الاستيقاظ المبكر .

ولأسلوب الكناية أثر طيب لا يوجد فى التصريح لأنها تعرض المعنى مُصورا بصورة محسوسة فيزداد وضوحا :

يقول عبد القاهر عن بلاغة الكناية "وقد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ... فقولنا هو جم الرماد ، أبهى للمعنى وأنبل من أن ندع الكناية ونصرح بالذى نريد ... وهذا القول أثبت له القرى من وجه هو أبلغ ... والسبب فى أن كان للإثبات بالكناية مزية لا تكون للتصريح ، أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد على وجودها آكد وأبلغ من أن تجئ إلى الصفة فتثبتها هكذا ساذجا غفلا ، وذلك لان كثرة رماد القدر دليل على كثرة الطبخ ، وكثرة الضيوف وهو المراد من الكناية فى المثال الذى أورده ويقول عنها يحيى بن حمزة العلوى فى كتابة الطراز "إن الكناية لها فى البلاغة موقع عظيم ، فإنها تفيد الألفاظ جمالا ، وتكسب المعانى ديباجة ، وكمالاً ، وتحرك النفوس إلى عملها ، وتدعو القلوب إلى فهمها ، فإن أوقعتها وصدّرتها الذم كانت آلم وأوجع ، وإلى ذكر فضائح المذموم أمكن ، إن وإن أدخلتها من أجل الحجاج كان البرهان بها أوضح وأنور ، والسلطان بها أقدر

---

(١) دلائل الإعجاز ٦٦ وما بعدها .

وأقهر ، والإفحام بها أشهر ، وإن وقعت فى الافتخار كان ضياؤه أسطع ، وإن كانت موجهة للاعتذار فهى إلى سلّ سخائم القلوب أعجل وأقرب ،وإن صُدّرتْ للاتعاظ كانت فى المبالغة فى النصيحة أنجح ، ولمرض القلوب أشفى وأنقع ، وإن أردت بها جانب الإعتاب والرضا كانت بطيب الصحبة ولين العريكة أظفر ، فهى كما ترى واقعة من البلاغة فى أعلا المراتب ، وحائزة من الفصاحة أعظم المناقب .

وذكر كثيرا من الكنايات الواقعة فى القرآن والحديث والشعر ،ومنها قوله تعالى ﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة﴾ سورة ص٢٣ . وإنما كنى عن المرأة بالنعجة لما بينهما من الملاءمة فى التذلل ، والضعف والرحمة وكثرة التألف .

ومما أورده من الحديث النبوى قول النبى ﷺ : "أنجشه رفقا بالقوارير" وكان أنجشة قد حدا للإبل فطربت لحسن حدائه فأسرعت فى سيرها وعليها النساء فقال له النبى ﷺ ، وإنما كنى عنهن بالقوارير ، لأمور ثلاثة :

١- لما هن عليه من حفظ الأجنّة .

٢- لأختصاصهن بالصفاء والصقالة والحسن والنضارة .

٣- لما فيهن من الرقة والمسارعة إلى التغيرّ والأنثلام كما يتسارع الأنكسار للقارورة لرقتها .

ومن ذلك قوله ﷺ لما جاءه رجل يشهد على نفسه بالزنا ، فقال له الرسول: لعلك لا تعرف الزنا ؟ فقال : والله يا رسول الله لقد غيّبْتُ ميلى فى مُكْحلتها كما يغيّب الرشاء فى البئر ، فكنى بالميل عن الذّكر ، وبالمكحلة عن الفرج - ومما أورده من كلام البلغاء "إياك وعقيلة الملح" كناية عن المرأة الحسناء فى

المنبت السوء ، وعقلية الملح هى اللؤلؤة تكون فى البحر فهى حسنة وموقعها ملح ، ومن ذلك قولهم : لبس له جلد النمر ، كناية عن العداوة -١/٣٩٩ .

من فوائد استخدام أسلوب الكناية :

لأسلوب الكناية الكثير من الفوائد ومن أبرزها .

- يعدل عن التصريح إلى الكناية إذا كان صريح اللفظ مما يستحيا من ذكره كقوله تعالى ﴿أوْ جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء﴾[1] فقد كنى بالغائط عن قضاء الحاجة ، كما كنى عن الملامسة بما يكون بين الرجل والمرأة .

- وقد يكون فى التصريح باللفظ ما يدعو إلى التشاؤم فيلجأ إلى الكناية عنه ، ومن ذلك أن المنصور كان فى البستان فرأى شجرة الخلاف فسأل وزيره عن اسمها فقال له : هذه شجرة وفاق ، وكنى بكلمة وفاق عن اسم الشجرة وهو خلاف ، وكالكناية عن الأسود بأبى المسك .

- وقد يكون فى ذكر الكناية تأدب مع المخاطب ، ومن ذلك أن عبد الملك بن صالح أهدى إلى الرشيد فاكهة فى طبق من خيزران وكتب إليه . بعثت إلى أمير المؤمنين بأطباق قضبان (يعنى خيزران) تحمل جنى باكورة بستان ، فقال الرشيد ما أحسن ما كنى عن اسم أمنا ، وكانت تسمى الخيزران .

مراتب أساليب البيان فى إفادة المبالغة :

إتفق البلاغيون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة بمعنى أنه يؤدى إلى مبالغة فى

---

(١) سورة المائدة ٦ .

المعنى لا يؤديها التعبير بأسلوب الحقيقة ، وذكروا أن الاستعارة أبلغ فـى رسـم الصورة من التشبيه لما فيها من ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به وتناسـى التشبيه ، كما أنهم ذكروا أن الكناية أبلغ من التصريح لأنها تفيد المعنى بدليلـه وبرهانه كما سبق توضيحه .

وقد بين عبد القاهر[1] أن مراتب هذه المبالغة لا ترجع إلى إثبات زيـادة فـى حقيقة المعنى وإنما هى زيادة فى تقرير هذا المعنـى واثباتـه ، فالتشـبيه فـى قولنـا محمد أسد يفيد زيادة التأكيد لإثبات معنى ألشجاعة لمحمد يقصـر عنـه أسـلوب الحقيقة كما لو قلت : محمد أكثر الناس شجاعة .

وكذلك الكناية إذا قلت : زيد كثير رماد القدر ، تفيد تأكيداً لإثبات الكرم له لا يفيده ، أسلوب الحقيقة كقولك كرم زيد لا يبارى ، وكذلـك الاستعارة فإذا قلت رأيت أسداً فى ساحة الحرب ، كنت قد أفدت تأكيداً لقوة شـجاعته لا تفيدها الحقيقة كما إذا قلت : رأيت شجاعاً لم أر مثلـه فـى سـاحة- الحـرب وهكذا ... وا لله أعلم - و لله الحمد أولاً وآخراً .

كفر الشيخ فى ٢ من جمادى الآخر ١٤١٩هـ .

٢٣ من سبتمبر ١٩٩٨م .

أ.د/ فريد محمد بدوى النكلاوى

أستاذ البلاغة والنقد بكلية

اللغة العربية بالقاهرة

---

(١) راجع دلائل الاعجاز ص٥٤ .